سمير اليوسف

حِينَ يَحْمِلُ الجَمْرُ رَمادَهُ

نصوص

حِينَ يَحْمِلُ الجَمْرُ رَمادَهُ

حِينَ يَحْمِلُ الجَمْرُ رَمادَهُ

نصوص

سمير اليوسف

2026

• **حينَ يحملُ الجمرُ رمادَه**

(نصوص)

• **سمير اليوسف**

• **طبعة أولى 2026**

• **الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2026/2/951)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	**: حينَ يحملُ الجمرُ رمادَه**
تأليف	**: اليوسف، سمير سعيد شحادة**
بيانات النشر	**: عمان: سمير سعيد شحادة اليوسف، 2026**
الوصف المادي	**: 000 صفحة**
رقم التصنيف	**: 819.9**
الواصفات:	**:/ النصوص الأدبية/ / النثر العربي/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/**
الطبعة	**: الطبعة الأولى**

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• **(ردمك): 978-9923-9506-1-6** ISBN

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

مقدمة

هذه ليست مقدمة تُكتب لتشرح نصوصًا،ولا أثرًا يقود إلى يقينٍ مسبق، بل هي وقفةٌ عند التخوم، محاولةٌ لإنصاتٍ بطيء لما يختمر في هذه النصوص من أسئلة، وما يتحرّك في ظلالها من رجفةٍ جماليّةٍ وفلسفيّة، قبل أن يبدأ الفعل الحقيقي: القراءة.

حين كتبتُ هذه النصوص، لم أكن أبحث عن المعنى بوصفه يقينًا، بل بوصفه توتّرًا. لم أكن أطمح إلى القبض على الفكرة، بل إلى دفعها كي تنزلق، كي تتشظّى، كي تترك أثرها لا صورتها. لذلك جاءت الكتابة هنا كتابةً رمزيةً مُعمّقة، لا تُحيل الرمز إلى وظيفة زخرفية، ولا تستعمله قناعًا للغموض، بل تتعامل معه باعتباره كائنًا حيًّا، له تنفّسه الخاص، ومساره الذي لا يستقيم إلا إذا تُرك حرًّا، غير مروَّض، وغير مفسَّر حتى النهاية.

الرمز في هذه النصوص ليس بديلاً عن الواقع، بل طريقًا آخر للعبور إليه. هو ليس شيفرةً تُحلّ، بل علاقة تُبنى. علاقة بين القارئ والنص، بين التجربة واللغة، بين ما يُقال وما يُؤجَّل. لذلك كثيرًا ما تتحرّك الصور الشعرية هنا في مساحاتٍ مفتوحة، لا تستقر على معنى واحد، ولا تُغلق بابها خلف تأويلٍ نهائي. الصورة لا

تُشير إلى شيءٍ خارجها فقط، بل تُنشئ فضاءها الخاص، وتطالب القارئ بأن يسكنه، لا أن يراقبه من الخارج.

أما اللمسة الفلسفية في هذه النصوص، فهي ليست نزوعًا تنظيريًّا، ولا استعارةً لمفاهيم جاهزة، بل هي اشتباكٌ وجوديّ مع أسئلة الإنسان الأولى: المعنى، الزمن، الخوف، الحلم، الكلمة، والغياب. الفلسفة هنا لا تظهر بوصفها خطابًا، بل بوصفها قلقًا كامنًا في النص، وانحصارًا في الجملة، وتردّدًا مقصودًا في الخاتمة. إنّها فلسفة السؤال الذي يعرف أنّه لن يصل، ومع ذلك يواصل السير.

تعمل النصوص على تفكيك المركزيات الصلبة: مركز المعنى الواحد، مركز الصوت المتعالي، مركز الحقيقة المتكاملة. في مقابل ذلك، تُقترح الكتابة بوصفها فعل كشفٍ إشكالي، يُضيء بقدر ما يُربك، ويمنح بقدر ما يأخذ. لذلك تتجاور في هذه النصوص الثنائيات الضدّية: النار والرماد، الضوء والظل، الحضور والغياب، الصوت والصمت. ليست هذه الثنائيات صراعاتٍ محسومة، بل حالات عبور، حيث يتحوّل كلّ طرفٍ إلى أثرٍ للآخر.

أما الصور الشعرية في هذه النصوص فلا تسعى إلى الإبهار بقدر ما تسعى إلى الإرباك الجميل. إنّها صور تُراكم طبقاتها ببطء، وتُحيل إلى أكثر من مستوى: حسيّ، رمزيّ، ووجوديّ. كثيرٌ منها

يقوم على الانزياح، وعلى كسر العلاقة المتوقّعة بين الأشياء، بحيث يصبح المألوف غريبًا، والغريب مأهولًا بإمكانية التأويل.

أما الإحالات، فهي جزءٌ من نسيج النص، لا زينة خارجيّة له. تحضر الفلسفة، والتاريخ، والأسطورة، والأصوات الإنسانية الكبرى، لا بوصفها مراجع، بل بوصفها ظلالًا تتحرّك في الخلفية. إنّها إحالات لا تطلب من القارئ أن يتعرّف عليها بقدر ما تطلب منه أن يشعر بذبذبتها، وأن يلتقط أثرها في نبرة النص ومساره. فالمعرفة هنا ليست استعراضًا، بل ذاكرةً تعمل تحت السطح.

هذه النصوص لا تُقرأ منفصلة، بل بوصفها مسارًا داخليًّا، تتكرّر فيها الثيمات، وتتبدّل وجوهها، وتعيد الأسئلة طرح نفسها بأقنعة مختلفة. لذلك قد يشعر القارئ أنّه يعود إلى الفكرة ذاتها، لكن من زاوية أخرى، أو عبر لغةٍ أشدّ احترافًا أو أشدّ هدوءًا. إنّها كتابة دائرية، لا تبدأ من نقطة ولا تنتهي عند أخرى، بل تتحرّك في فضاءٍ مفتوح، حيث الخاتمة ليست إغلاقًا، بل وعدًا بديمومة مستمرة.

أكتب هذه النصوص وأنا أعلم أنّها لا تُقدّم نفسها بسهولة، ولا تمنح معناها من القراءة الأولى. لكنّها، في المقابل، تُكافئ القارئ الذي يمنحها صبره، ويقبل أن يدخلها لا بوصفه باحثًا عن إجابة، بل بوصفه شريكًا في القلق. فكلّ قراءة تُعيد كتابة النص، وكلّ قارئ يضيف طبقةً جديدة إلى جمره المتوهّج.

هذه إذن ليست مقدمة لتفسير ما سيأتي، بل دعوة إلى أن تُقرأ النصوص كما كُتبت: بأناةٍ ، وبانتباه، وباستعدادٍ لترك المعنى يجرحنا قليلًا، قبل أن يمنحنا دفأه. فالكتابة هنا لا تعد بالطمأنينة، بل بالصدق. ولا تقترح خلاصًا، بل تقترح أثرًا... وما بين الأثر والرماد، يولد الجمر من جديد.

سمير اليوسف

آذار ٢٠٢٦

عَلَى حَافَّةِ الِاكْتِمَالِ

وَقَفْتُ أَحرُسُ سِرَّ المَوجِ في صَدَفي
أُقَلِّبُ الصَّمتَ بينَ النَّارِ والذُّبُلِ
أَسقي المَرايا ظِلالًا من تَرَجُّمِها
فَتَخجلُ الرُّؤيا من أشباحِ مُكتَمِلِ
يَمشي خَيالي على جِسرٍ مِنَ الغَسَقِ
ويَكتُبُ الحبرُ أنفاسي على الطُّلَلِ
كُنتُ اتِّجاهًا يُناديني لأتبعَهُ
فما وجدتُ سِوى مِني على الأَمَلِ
حاوَرتُ نُجمَتَنا الأولى فَكَذَّبَني
صَدى الزَّمانِ، وَعادَ اللَّيلُ في العَجَلِ
قَدَّمتُ وجهيَ للأبوابِ فانفتحتْ
على جُموحِ دُخانٍ دونَ مُكتَمَلِ
ثُمَّ انْثَنَيْتُ بِأَضلاعي أُلاوِحُها
فاستَنطَقَ الوَجعُ أنقاضًا من الجُمَلِ
كُنتُ انكِسارًا تُرَجّي ظِلَّهُ قُبَلًا

فلا اقترَبْتُ ولا أوغلتُ في السُّبُلِ
كُلُّ المَدى بِي، وكُلُّ الأَرضِ تَجهَلُني
إِلّا الغُبارَ الذي يَشتاقُ للمَطَلِ
تَرجَمتُ موتيَ بالألوانِ فانفجرتْ
فِي الرَّسمِ أَصواتُ أَجفاني على الخَلَلِ
وَانسابَ وَجهيَ في المِرآةِ مُنطفِئًا
كَأَنَّهُ طيفُ أَحلامٍ على مَهَلِ
قَد أَلتَقِي بي، وقد أُنسى على طُرُقٍ
وَقد أُقيمُ بِلَا أَثَرٍ وَلَا زَجَلِ
ماذا أُسَمّي ارتِعاشَ الضَّوءِ في لُغَتي؟
صَدى؟ أَمِ الوَجعُ في تَأويلِهِ خَجَلِ؟
في كُلِّ جارِحَةٍ أنقَضَّ سُؤالُ دَمي
وَالرَّدُّ مِنهُ قُرَاءَاتٌ منَ الجُمَلِ
هَل كُنتُ أَكذُبُ إن بَاحَتْ مَجازَتُنا؟
أَم كَانَ صِدقُ المعاني يُشبهُ الزَّلَلِ؟
لَم أَنتهِ بَعدُ... وهذا اللَّيلُ يسألُني:
هَل ما كَتَبتَ... قَصيدٌ؟ أَم هوَ الأَجَلِ؟

عَتَبَةُ الاحْتِمَالِ

ما بين ظلٍّ يتدلّى من سقف الروح، ونورٍ ينبت من أعمق ندبة...
تبدأ الرحلة.

***

في البدءِ...
كان الصراعُ خيطًا خفيًّا
يخترقُ ليلَ الروح،
يوقظُ ما نامَ في أعمقِ صدعٍ
من مرايا الذات.
وكانت خطانا
تتعلّم كيف تُنصتُ
لصريرِ الأسئلة،
وكيف تُعيدُ ترتيبَ ظلِّها
حين يتقدّم الحُلمُ
خطوةً واحدة
نحو هاويةٍ

تتَّسِعُ إن سمّيناها هاوية.

هناك...

عند تخومٍ لا يعبُرها

سوى من جرّب

أن يقاتلَ ما يختبئُ فيه،

تشتعلُ الشرارةُ الأولى،

وتنهضُ الفكرةُ

كجسدٍ خرجَ تَوَّاً

من رمادٍ لا يتذكّر احتراقه.

كلّ شيءٍ يبدأ من الداخل:

الضوءُ،

وارتجاجُ اليقين،

وتلك الرفرفةُ الغامضة

التي تجعلُ الإنسانَ

يمشي إلى ذاته

كأنه يمشي

إلى آخرِ احتمالاتِ النور.

***

كنتُ أمشي

وفي خطوي

صدى وجهٍ قديمٍ يُجادل الريح،

يضع المتاريسَ من ظنونه،

ويحرسُ الباب الأخير

خشيةَ أن يتسرّب الضوءُ

فيعرفَ كم خفتُ منّي.

أحملُني

كأنني ذاكرةٌ لم تكتمل،

خريطةٌ تُعيد رسمَ نفسها

عند كل التواء،

وعند كلّ كلمةٍ

لم تُقل.

تتدلّى الأحكامُ المسبقة

في سقف الوعي

مثل ثمارٍ مُرّة،

كلّما حاولتُ قطفها

سال طعمُ الأمس

على راحتي...

وقال الجرحُ:

«لم يحن الوقتُ بعد».

أصغي...

صوتي ينهض من العتمة

كأنه طفلٌ يتعلّم نطقَ اسمه،

متردّدًا

بين ما كان،

وما يجرؤ أن يكون.

الغضبُ نافذةٌ نصفُ مكسورة،

والصبرُ

مسافةُ ضوءٍ

تتّسع كلما ضاقت الروح،

وكلما عاجلتني القتامةُ

أهمس للظلال:

«هوني عليك...

فإن داخلي لم يعد بيتًا للانطفاء».

أرتّبُ نفسي كما تُرتَّبُ

حقائبُ الرحيل،

أضع الخوفَ في الأسفل،

وأرفعُ أعلى ما أملك

من يقينٍ صغيرٍ

لم تخدشه الهزائمُ بعد،

يقينٍ يشبه شرارةً

تهرب من رمادٍ

وتصرّ أن تكون

أولى إشارات الفجر.

أفتّش عني

في الممرّات الضيقة للذاكرة،

في ركلةِ غضبٍ

تعثّرتُ بها وأنا أبحث عن معنى،

وفي دمعةٍ

وقفت على باب الليل

لتقول:

«هنا، تبدأ الكتابة،

حين يتحوّل الوجعُ

إلى يدٍ تُمسك الطريق».

أرفع رأسي،

فإذا بالنافذة

تجرّ ضوءها إليّ

كما لو كانت تعرفني،

كما لو كانت تقول:

«إن العودة إلى النور

ليست خيانةً للظلمة...

إنما إنصافٌ لها».

أستعيدُ أثقالي

من أرشيف الأيام،

ثم أعلّقها على كتف الريح

وأمضي،

غير آبهٍ بالهاوية

التي حفرتها الشكوك

تحت قدمي،

ولا بالندوب التي

تُلوّح لي كذكرياتٍ عنيدة.

أمضي

لأن الطريق لا يكون طريقًا

إلا إذا مشتْهُ روحٌ

تجرّب أن تُولد من جديد.

ولمّا اقتربتُ من آخر السؤال،

سمعتُ صوتًا

لم أعرفه من قبل،

صوتًا يشبهني

ولا يشبهني،

يقول:

«إن أشدّ معاركك صدقًا

هي التي لا يراك فيها أحد،

ولا يشهدُ انتصارها

سوى نبضةٍ

تتغيّر فجأةً

كما لو أنها فهمتِ الحياةَ أخيرًا».

***

وهناك،

عند عتبةٍ لا اسم لها،

توقّفتُ...

لا لأن الطريق انتهى،

بل لأن الاتساع بدأ.

مددتُ يدي للنور،

ثم تركتُه يمرّ منّي،

لئلا أعيق

ما يمكن أن أصيرَه غدًا.

ومن تلك العتبة ذاتها

تنفتح رحلةٌ أخرى،

فمن يمضي إلى الداخل

يسمع صدى احتماله يتشكّل،

ومن يدير ظهره للنور

يترك للظلّ فسحةً

ليعيد صياغته كما يشاء.

والبوابة – بحدّها الغامض

الواقف بين احتمالين –

لا تزال

تتنفّس

حينَ حَمَلَ الجَمْرُ رَمادَهُ

إلى مَكْسيمِ غُورْكي

***

يَمْضي الصَّمْتُ في المَوْكِبِ،
كَأَنَّ الأَرْضَ تُشَيِّعُ المَعْنَى،
وَيُودِّعُ الحَرْفُ صَوْتَهُ
لِيَبْدأَ نَشيدَهُ الأَبَدِيَّ في الماواراءِ.
تُصَفِّقُ الرِّيحُ بِخَفْتٍ،
تُلَقِّنُ الغَيْمَ صَلاةَ الوَداعِ،
وَتُخْفي في ثَوْبِها شَيْئًا مِن وَهْجِ الوَرَقِ، (اللظى)
كَأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّ الكَلِماتِ لا تَموتُ،
بَلْ تُهاجِرُ لِتَبْني وَطَنًا آخَرَ لِلْحَقيقَةِ.
في الطَّريقِ،
تَمْشي الخُطى بِانتِظامٍ مِن خَوْفٍ،
وَالنَّظَراتُ تُشْبِهُ مَرايا مَكْسورَةً،
تَرى فيها الوُجوهُ ظِلالَها لا مَلامِحَها.

هَمَسَ أَحَدُهُمْ:

«ما أَثْقَلَ النَّعْشَ!»

فَرَدَّتِ الرِّيحُ مِن فَوْقِ الرُّؤوسِ:

«بَلْ ما أَثْقَلَ الصَّمْتَ عَلى مَنْ خانَ الـمَعْنَى!»

لَمْ يَكُنْ ذاكَ نَعْشًا،

كانَ كِتابًا أُغْلِقَ عَلى آخِرِ فَصْلٍ،

وَالَّذينَ يَحْمِلُونَهُ

يَظُنّونَ أَنَّهُمْ يُطْوونَ الوَرَقَ،

وَهُمْ يَفْتَحونَ بابًا لِلْخُلودِ.

في أَقْصَى الزّاوِيَةِ،

طِفْلٌ يُراقِبُ الغَيْمَ،

يَسْأَلُ أُمَّهُ هَمْسًا:

«لِماذا يَدْفِنونَ النُّورَ في صُنْدوقٍ مِن خَشَبٍ؟»

فَتَصْمُتُ الأُمُّ،

كَأَنَّها تَخافُ مِن الإِجابَةِ

الَّتي تُنْبِتُ جَناحَيْنِ لِلْحَقيقَةِ.

يَمْضي النَّعْشُ،

وَالأرْضُ تَتَنَفَّسُ بِبُطْءٍ،

كَأَنَّها تَحْتَضِنُ حُلْمًا قَديمًا

أَضاعَتْهُ بَيْنَ الحُروبِ وَالرَّمادِ.

ظِلٌّ يُرافِقُ المَوْكِبَ،

يَمْشي بِلا جَسَدٍ،

يُطيلُ النَّظَرَ إِلى الَّذينَ يَدْفِنونَ فِكْرًا

وَيَجْهَلونَ أَنَّهُمْ يُنْبِتونَ غَدًا.

كانَ اللَّيْلُ يُنْصِتُ،

وَالْقَمَرُ يُطْأْطِئُ وَجْهَهُ خَجَلًا،

فَالضَّوْءُ لا يَعْرِفُ طَريقَهُ

إِلَّا حينَ يُحْمَلُ في ظُلْمَةٍ كَهذِهِ.

مَنْ قالَ إِنَّ الـمَعْنَى يُدْفَنُ؟

هُوَ الَّذي يَكْتُبُ عَلى حَجَرِ القَبْرِ:

«هُنا تَبْدَأُ الحَياةُ.»

فَالْكَلِمَةُ،

حينَ تُزْهِرُ مِن جُرْحٍ،

تُصْبِحُ خالِدَةً،

وَتَشْهَدُ لِلإِنْسانِ

أَنَّهُ يَسْكُنُ النُّورَ في الـمَعْنَى،

وَيُقيمُ مِن الحُروفِ مَعْبَدًا لِلرُّوحِ.

الَّذينَ يَمْشونَ خَلْفَ النَّعْشِ

لا يَدْرونَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعونَ مَراياهُمْ،

وَأَنَّ الضِّياءَ لَيْسَ جُثْمانًا،

بَلْ نَهْرًا يَتَخَفَّى بَيْنَ الأَصابِعِ وَالكُتُبِ،

يُعيدُ لِلأَرْضِ نَبْضَها

كُلَّما جَفَّتْ مِنَ الـمَعْنَى.

كَمْ مِن مَوْتٍ

تَوَهَّمَ أَنَّهُ النِّهايَةُ،

فَإِذا بِهِ بابٌ لِلْخُلودِ،

وَكَمْ مِن كَلِمَةٍ

تاهَتْ في فَمِ الصَّمْتِ،

فَأَنْبَتَتْ في العَدَمِ وَرْدَةً

تُسَمّى الإِنْسانَ.

يا أَيُّهَا الحَرْفُ الـمَحْمولُ عَلى أَكْتافِ الحَديدِ،

يا جَمْرَ الحَقيقَةِ الـمَلْفوفَ في قُماشٍ مِن خَوْفٍ،
إِنَّهُمْ لا يَدْرونَ أَنَّكَ تُهاجِرُ،
تَتْرُكُ في كُلِّ يَدٍ بَصْمَةَ ضَوْءٍ،
تُضيءُ حينَ تَشْتَدُّ العَتْمَةُ.
تَقَدَّمَ المَوْكِبُ...
وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْحو أَثَرَها
كَأَنَّها تَخْشى أَنْ يَعْرِفَ الغَدُ ما جَرى.
لَكِنَّ الأَرْضَ تَحْتَفِظُ بِكُلِّ نَفَسٍ،
بِكُلِّ نَغْمَةٍ،
بِكُلِّ حَرْفٍ سَقَطَ مِن جَناحِ القَصيدَةِ،
وَتُخْفِيهِ في قَلْبِها
حَتّى تَنْشَقَّ عَنْهُ الحَياةُ مِن جَديدٍ.
في الـمَدى البَعيدِ،
صَوْتٌ لا يُسْمَعُ إِلَّا في الأَعْماقِ:
«لا تُشَيِّعوا الضِّياءَ...
إِنَّهُ يُشَيِّعُكُمْ.»

***

مَضى المَوْكِبُ نَحْوَ الغُروبِ،
لَكِنَّ اللُّغَةَ بَقِيَتْ واقِفَةً،
تُحَدِّقُ في الأُفُقِ الـمائِلِ إِلى لَوْنِها،
وَتَبْتَسِمُ،
كَأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّ الحَرْفَ الأَخِيرَ
لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.

أَطْيَافُ الحُلْمِ

من رحم الغياب وُلد الضوءُ غريبًا، يبحث عن ملامحَ يخفيها في جسد الحلم.

***

هو كائِنٌ يَتَنَفَّسُ في الظِّلالِ،

يَمشي على خُيوطٍ مِن وَهمٍ صافٍ،

ويُخفِي مَلامِحَهُ في مَرايا السَّرابِ،

لا يُمْسَكُ باليَدِ

لَكِنَّهُ يَترُكُ في الأصابِعِ

أَثَرَ النَّدى.

يَعبُرُ بلا خُطى

ويَترُكُ في الهَواءِ رَجْعَ نَغْمَةٍ لا تَنْطَفِئُ.

هو البَابُ الَّذي لا يَنْغَلِقُ،

والمِرْآةُ الَّتي لا تَعكِسُ شَيئًا

إلّا لِتُعيدَ خَلْقَهُ مِن جَديدٍ.

كُلَّما ظَنَنتُهُ بَعيدًا

انفَتَحَ مِن قَلبِهِ بابٌ آخَرُ،
حَتّى إذا أدرَكتُهُ
أدرَكتُ أنَّ اسمَهُ... الحُلْم.

***

رَأيتُكِ أوّلَ الطَّيفِ،
شَرارَةً تَتَوَهَّجُ في ليلٍ يَرتَجِفُ مِنَ البَرْدِ.
كُنتِ لهبًا يَلْمَعُ بلا احْتِراقٍ،
تَزيحينَ عن الرِّمادِ حِجابَهُ،
وتَزرَعِينَ في العُرُوقِ يَقْظَةً
تَتَجَدَّدُ كُلَّمَا هَبَّت نَسْمَةُ اسْمِكِ.
كان شَعرُكِ يَرْتَقِصُ كالسِّرِّ في اللَّيلِ،
وعَيْنَاكِ شعاعانِ يشقان صمتَ الظلامِ،
فَإذا بي أَنهَضُ كالأُفُقِ
حِينَ يَسلِّمُ مَفاتيحَهُ لِلْفَجْرِ.

***

ثم جئتِ ثانيةً،
ندى يتساقط من بين أصابع الغيم،

يغسل وجهي من غبار الطريق.

كنتِ الحلم الذي يحوّل الصخر دمعة،

ويُعلّم الظمأ أن يغنّي للمطر.

خطوكِ على الأرض تراتيل،

وعطركِ صلاةٌ تسافر بي

إلى بساتين لم تُخلق بعد.

كنتِ الموجة التي تتدلّى من قميص البحر،

فأرتمي فيكِ لأكتشف

أن الماء لا يغرق من يعشقه.

***

ثُمَّ لَمَحْتُكِ،

عاصِفَةً تَنسابُ فِي الأُفُقِ بِأجنِحَةٍ خفيّةٍ.

أيتها الرَّغْبَةُ الَّتِي تَجتازُ صَمتَ الرِّيحِ،

أيتها الوَمضةُ الَّتِي تَخْطُّ نُصُوصَها عَلَى السَّحَابِ،

كُنتِ الحُلْمَ الجَامِحَ،

الَّذِي يَعْلُقُ فِي أَعناقِ اللَّيلِ صَدَى المَسَالِكِ.

ضحكتكِ نَبْضٌ خافِتٌ،

وصوتكِ تَغنِيَةٌ تَسافرُ بِالعَيْنِ وَالقَلْبِ،
وحِينَ اقْتَرَبْتُ مِنْكِ
انفَتَحَت أَمامِي مَسَالِكُ لَم تَطَأها قَدَمَايَ،
كَأَنَّكِ تَفْتَحِينَ أَبْوابَ الكَوْنِ بِيَدٍ مِن هَواءٍ.

***

وَرَأَيْتُكِ مَرَّةً أُخْرَى،
هَدْهَدَةً خَرَجَتْ مِن وَتَرٍ مُبَلَّلٍ بِالدَّمْعِ.
كُنتِ الحُلْمَ الرَّقِيقَ،
الَّذِي يُرَمِّمُ الفُؤادَ بِبُطْءٍ،
وَيَزْرَعُ فِي الشُّقُوقِ وَرْدًا لا يَذْبُلُ.
مِقْلَتَاكِ نَافِذَتَانِ عَلَى الحَنِينِ،
وَابْتِسَامَتُكِ جِسْرٌ
يَعْبُرُهُ الغِيابُ لِيَتَحَوَّلَ إِلَى حُضُورٍ.
كُنتِ القَصِيدَةَ الَّتِي تُكْتَبُ بِالدَّمْعِ،
وَتُتْلَى بِالهمْسِ،
فَأَفْهَمُ أَنَّ اللِّينَ أَحْيَانًا
أَشَدُّ بَأْسًا مِنَ الصَّلَابَةِ.

**

وَحِينَ ظَهَرْتِ،

كُنتِ نُورًا لا يُرَى بِالعَيْنِ.

هَيْبَةٌ تَمْشِي فِي صَمْتِكِ،

تُسقِطُ المَهَابَةَ عَلَى مَنْ يَراكِ،

كَأَنَّ الجَمَالَ اتَّخَذَكِ مَقَامًا

لِيُعْبَدَ بِلَا طُقُوسٍ.

أَسْمَعُ هَمْسَكِ فَيَتَرَدَّدُ فِي دَاخِلِي

كَنَشِيدٍ أَبَدِيٍّ،

أَرَى مَلامِحَكِ فَأَرْتَعِشُ،

وَأُدْرِكُ أَنَّ الضِّياءَ قَدِ اخْتَارَ

أَنْ يَلْبِسَ جَسَدًا يَشْبِهُكِ.

***

ثُمَّ رَأَيْتُكِ سَرابًا،

تَقْتَرِبِينَ وَلا تَصِلِينَ،

تَغِيبِينَ وَلا تُفَارِقِينَ.

كُنتِ الحُلْمَ الغامِضَ،

الحُضُورَ المُتَجَسِّدَ فِي الغِيابِ.

حِينَ أُنَادِيكِ

أَسْمَعُ رَجْعَ صَوْتِي يَعُودُ إِلَيَّ،

كَأَنَّكِ وَطَنٌ بَعِيدٌ

يُقِيمُ فِي المَسافَةِ

وَيَأْبَى أَنْ أَبْلُغَهُ.

فِيكِ تَعَلَّمْتُ أَنَّ الشَّوْقَ بَيْتٌ

بِلا جُدْرَانٍ،

وَأَنَّ الغِيابَ نَافِذَةٌ أَوْسَعُ مِن كُلِّ حُضُورٍ.

***

وَأَخِيرًا تَجَلَّيْتِ،

كَأَنَّكِ الطَّيْفُ الجَامِعُ،

الَّذِي يُذِيبُ فِي صَدْرِهِ

جَمِيعَ الظِّلَالِ.

كُنتِ البِدَايَةَ وَالنِّهَايَةَ،

الأَصْلَ وَالمَآلَ،

الأُغْنِيَةَ حِينَ تَصِيرُ كَوْنًا،

وَالحُلْمَ حِينَ يَصِيرُ يَقِينًا لا يُفَسَّرُ.

كُنتِ المَرَايَا كُلَّهَا،

لَكِنَّهَا مِرْآةٌ وَاحِدَةٌ،

تَفْتَحُ لِلرُّوحِ بَابَهَا الأَخِيرَ،

بَابًا لا بِدَايَةَ لَهُ وَلا اِنْتِهَاءَ.

***

وَمُنذُ أَن اسْتَوْطَنَتْ فِي دَاخِلِي،

لَم أَعُدْ أَعْرِفُ:

أَأَنَا الَّذِي يَحْلُمُ بِكِ،

أَمْ أَنَّكِ أَنْتِ الَّتِي تَحْلُمِينَ بِي،

أَمْ أَنَّا مَعًا

لا شَيْءَ سِوَى ظِلٍّ

يَمْتَدُّ فِي فَضَاءِ

لا حُدُودَ لَهُ؟

حِينَ يَعْبُرُ الظِّلُّ نَهْرَ المَعْنَى

«التعلّم بلا تفكير جهد ضائع؛ والتفكير بلا تعلّم أمر خطير»

(كونفوشيوس)

(١)

على ضفافِ اللازمن،

يمدُّ الفجرُ يداً من غبار الحروف،

يلتقطُ شظايا ضوءٍ

تاهَ عن مصباحِ الأسلاف،

ويرتبها في صمتٍ

كما تُرتَّبُ النجومُ في خرائطٍ لا يعرفها البحر.

كان الصوتُ القديمُ يهمسُ في الطين:

كلُّ يدٍ تُمطرُ دون أن تزرع،

توقظُ العطشَ من سباته.

(٢)

في وادٍ من مرايا متكسّرة،

تتمشّى الأرواحُ وهي تحملُ حقائبَ فارغة،

تملؤها بأصداء الريح،
ثم تمضي ظانّةً أنّها تمسكُ العالم.
لكن الغيم،
حين يضيقُ صدرُه بالماء،
لا يُرسلُه إلا حيثُ يعرفُ الجذور،
والجذورُ التي لا تعرفُ طريقها
تسقطُ في حفرة النسيان.

(٣)

رأيتُ مزارعـًا يحرثُ السحاب،
يرشُّ عليه بذورَ الظنون،
فيرتفعُ الغيمُ حاملاً جنينَ السراب.
سألته: أهذا حصادك؟
قال: الحصادُ ليس لمن يلمسُ الأرض،
بل لمن يرى البذرةَ وهي تُفكّرُ في شقِّ قشرتها.
ففهمتُ أنّ كلَّ فجرٍ
يحتاجُ عينـًا ثالثة
تُبصرُ ما وراءَ الضوء.

(٤)

في غرفةٍ بلا أبواب،

جلسَ حَبرٌ أسودٌ يفاوضُ الورق،

قال له: أعطيكَ المعنى إذا أخرجتني من قيد البياض.

لكن الورقَ كان غريبـًا،

يخافُ أن يُولد نصٌّ بلا شهقةِ الدهشة،

فتقاسما الصمت،

وتَرَكَا البابَ مُواربـًا

لريحٍ تعرفُ أن تُفسّر الخطى.

(٥)

أحيانـًا، يجيءُ السؤالُ

مرتديـًا قناعَ الإجابة،

فيغترُّ العابرون،

ويتركون البوصلةَ تُصدأ في جيوبهم.

لكن الحكيمَ،

حين يرى الطريقَ ملتفّـًا حول ذاته،

يعرف أن كلَّ خطوةٍ

مجردُ تمرينٍ على التذكّر،
وأن الضياعَ أحيانـًا
هو الحبرُ الذي يوقّعُ على شهادة الوصول.

(٦)

وحين عبرَ الظلُّ نهرَ المعنى،
لم يأخذْ معه شيئـًا،
تركَ الضفافَ تنظرُ في المرآة،
وتركتُ أنا القلمَ فوق الورق
كما تُتركُ شمعةٌ
في غرفةٍ لا تعرف إن كان الليلُ سيعود
أم أن الفجرَ
مجردُ بابٍ آخر
في متاهةٍ بلا آخر.

صَمْتٌ يُرَبِّي الطَّاغِيَة

«الطاغية يصنعه صمت الناس أكثر مما يصنعه السيف»

سقراط

**

في الممرّاتِ التي صارتْ أرحامًا للعدم،

ينحدرُ الهواءُ بلا اسم،

تتدلّى الجدرانُ مثلَ لُحىً نُحِتَتْ من صمتِ القرون،

والأفواهُ مغلقةٌ كأبوابٍ

لم تُمنَحْ يومًا مفاتيحَها.

هناك، في الساحةِ التي بلا زمن،

يعلو ظلٌّ يزدادُ كثافةً،

كلّما انحنى الناسُ نحو الداخل،

وكأنَّ الظهورَ التي تنحني

هي الطينُ الأوّلُ للتمثال.

ليس في الأفقِ سيوفٌ،

إنّما في الصمتِ رَحىً تدور،

تَطحنُ الحجارةَ إلى غبارٍ

ثمّ تنسجُ منه هالةً من عَتمةٍ

تُثبَّتُ على جبينٍ لم يعرفِ النور.

هكذا يتكاثرُ الطاغيةُ:

لا من نزفِ الدم،

بل من ارتعاشةِ نظرةٍ

هربتْ من مقلتها،

ومن صرخةٍ وُئِدتْ في حنجرةٍ

تعلّمتِ الخوفَ حتى صارتْ جدارًا.

الأرضُ نفسُها تخلّتْ عن صوتِها،

واكتفتْ بالارتجافِ تحت أقدامٍ غليظةٍ.

والسماءُ أطبقتْ أذنَيها

عن نجوى العشبِ،

وتركتِ القاعةَ فارغةً

لصوتٍ واحدٍ يتردّدُ

مثلَ صدىً لا يعرفُ انطفاءً.

حينَ يرفعُ الظلُّ يدَه،

لا يرفعُها ليقطع،
بل ليقيسَ اتساعَ الخَرَس،
إذْ يعرفُ أنّ الخوفَ
يشتعلُ تحتَ الجلدِ
كنارٍ بلا دخانٍ.
العيونُ معلّقةٌ إلى الترابِ،
والحصى يبدو أرحمَ من الأفقِ.
الشفاهُ خِيطتْ بخيطٍ لا يُرى،
نسجتْه يدُ العجزِ المتواطئ.
من هذا الخَرَسِ تُقامُ الممالكُ،
أعمدتُها من أنفاسٍ محتجزةٍ،
وسقوفُها من كلماتٍ مجهضةٍ،
وجدرانُها من أحلامٍ تكسّرتْ قبل الولادة.
يا أيُّها الحجرُ،
لماذا تشهدُ تفكّكي ولا تتصدّع؟
يا أيُّها الليلُ،
لماذا تبتلعُ الهمسَ ولا تردَّهُ أغنيةً؟

يا أيُّها النهرُ،

لماذا تجري إلى الخلفِ

حينَ يقتربُ وقعُ الخطى؟

لا تسألوا عن الدمِ،

فالدمُ لا يُنبتُ طغاةً.

إنّما الصمتُ،

ذلك الفراغُ الكونيُّ الذي يهبطُ كسقفٍ،

هو الذي يضعُ في وسطِ القاعةِ

مقعدًا من غيابٍ ثقيلٍ،

ويُجلسُ عليه ظلًّا

يتحوّلُ شيئًا فشيئًا إلى جسدٍ،

ثمّ إلى وجهٍ،

ثمّ إلى قدرٍ لا فكاكَ منه.

وحينَ يكتملُ التمثالُ،

يُمحى السؤالُ:

متى كانَ حجرًا؟

ومَن وضعَ أوّلَ صمتٍ تحتَ قدميهِ؟

هكذا يولدُ الطاغيةُ،

من الفراغِ الذي صُنعَ من أفواهٍ مغلقةٍ،

لا من حدِّ السيفِ.

وحينَ يحاولُ أحدُهم أن يصرخَ،

يكتشفُ أنّ صوتَه قُدَّ من الطينِ،

وأنّ آخرَ أنفاسِه

قد صارتْ حجارةً في صدرِه.

والظلُّ هناك،

يكبرُ كأنّه نفسُ الخَرَس،

لا كأنّه نفسُ الإنسان.

أجنحةُ الفَيْضِ

يا أيُّها السِّرُّ المُنبَثِقُ من غَيْمٍ بَعيد،
أيُّها الضَّوْءُ الَّذي يُوقِظُ العُروقَ اليابِسَة،
ويُقيمُ في شُقوقِ الصَّخْرِ نَهْرًا لا يَنضُب،
إنَّ الأرْضَ لم تُخْلَقْ كَي تَكْتَنِز،
بَل كَي تَهَبَ عِطْرَها لِمَن يَقْتَرِب،
وإنَّ القَلْبَ ليسَ خَزِينَةً مِن حَجَر،
بَل نافِذَةٌ تُشْرِعُ على مَن يَعبُر،
فَكُلُّ فَيْضٍ يَخرُجُ مِنكَ،
هو بَعضُكَ،
لكِنَّهُ حِينَ يَلْمَسُ الآخَرينَ
يَتَحوَّلُ إلى سَماء.

الكَلِمَة

كانَ البِدْءُ كَلِمَةً،
غيرَ أنَّها لم تَكُنْ حَرفًا عابِرًا،

بَل شَرارَةً تُضيءُ العَتْمَةَ في الأرْواح،
كَأنَّها تُعيدُ لِلرِّياحِ سِرَّ الغِناء،
ولِلماءِ قُدرَتَهُ على أنْ يَكونَ نَديً لِلظَّمَأ،
في الكَلِمَةِ وُعودٌ لا تُحصى،
تَدخُلُ إلى جُرحٍ قَديم
فَتَجعَلُهُ يُشبِهُ وَردَةً نَدِيَّة،
وتَطرُقُ أبْوابَ الغَريبِ في لَيْلِهِ،
فَتُزيلُ مِن قَلبِهِ غُربَتَه،
وتَترُكُهُ يُؤمِنُ أنَّ العالَمَ ليسَ حَجَرًا،
بَل جَسَدًا يَتَنَفَّس.

البَسمَة

ثمَّ كانَتِ الضَّحكَةُ الأُولى،
كَفَجرٍ يَتَدَلّى مِن عُيونٍ نَدِيَّة،
تَنقَضُّ على وَجَعٍ نائِم،
تَفتَحُ لِلرِّيحِ نافِذَةً كَي تَدخُل،
وتَترُكُ لِلنَّهارِ

وَشمًا مِن بَياضٍ لا يَزُول.
إنَّها البَسْمَةُ الَّتي لا تُسْمَعُ وَحدَها،
بَل تُرى في انْحناءَةِ الغَيْم،
وفي استِدارَةِ القَمَر.

اليَدُ

ورأَيْتُ اليَدَ،
وهي تَحمِلُ سِرَّ الحُقول،
تُخْفي في راحَتِها بُذورًا مِن ضَوْء،
تَمتَدُّ نَحوَ مَجهولٍ عَطْشان،
فَتَزرَعُ في الطَّريقِ غابَاتٍ لَم تَكُن،
وتُعَلِّمُ الطِّينَ أن يُزهِر،
وتُعَلِّمُ الحَجَرَ أن يَكونَ لَيِّنًا،
يَدٌ لا تُعطي ما تَملِك،
بَل ما هِيَ،
فَتَصيرُ حِينَ تَنبَسِطُ
سَماءً أُخْرَى
تُظَلِّلُ الغَريب.

جَبْرُ الكَسْر

وحِينَ انكَسَرَ الزُّجاجُ في القُلوب،
وامتَلَأت الأرْضُ بِشَظايا لا تُرى،
هَبَّت أنامِلُ مِن صَمْتٍ رَقيق،
تَلُمُّ ما تَفَتَّت،
وتَسكُبُ على الجُرحِ نَهرًا مَخْفِيًّا،
كَأَنَّها تُعيدُ لِلعُصفورِ جَناحَه،
ولِلنَّهرِ مَجراه،
ولِلسَّماء مَطَرَها.

أُذُنُ الغَيْم

في العُمْق،
حَيْثُ تَتَشَظَّى الأصْواتُ وتَتَلاشَى،
تَنهَضُ مِرآةٌ خَفِيَّة،
تَجمَعُ ما تَكسَّرَ مِن الهَمْس،
وتَصيرُ أُذُنًا للغَيْم،
تَحْمِلُ أَنَّاتِ الطُّيورِ المُنهَكَة،

وتُعيدُها نَغَمًا يُسكِّنُ الرِّيح.
مَن يَملِكُ صَدًى كهذا
يُشْبِهُ البَحرَ في اتِّساعِه،
ويُشْبِهُ اللَّيلَ في قُدرَتِه على الحِفاظِ
على أسرارِ النُّجوم.

الشُّعْلَة

وكانَت هُناكَ شُعْلَة،
تَتَناوَلُها الأيادِي في العَتمَة،
تُشْعِلُ حُروفًا غامِضَة على الجِدار،
فَتَتَحوَّلُ إلى مَسالكَ تَقودُ إلى الفَجْر.
مَن أَمسَكَ بِنُورِها لم يَحتَفِظْ بِهِ،
بَل أَرسَلَهُ في العَراءِ
كَمَا تُرسِلُ الشَّمْسُ خُيوطَها،
وكَما يُلقِي النَّهْرُ مِيَاهَهُ
على مَن يَعْرِفُه ومَن لا يَعرِفُه.
إنَّهُ سِرٌّ يُكاثِرُ أنفُسَنا،
وَيَجعَلُ الظَّلْمَةَ أقلَّ عُنفًا.

الصُّلْح

وفي السّاحات،

حَيثُ تَكثُرُ السُّيوفُ،

وتُرفَعُ الرّاياتُ المُلطَّخَةُ بالدَّم،

يَمشِي ظِلٌّ مَجهول،

يَزرَعُ بَينَ الصَّرخاتِ واحاتٍ مِن صَمْت،

كَأَنَّهُ يُغلِقُ فَمَ العاصِفَة

ويُعَلِّمُها أنْ تَتَنَفَّس،

ويَرسُمُ فَوقَ الجِدارِ المُمَزَّق

خُطوطًا غامِضَة،

مَن يَقرَؤُها يَفهَمُ أنَّ الحَربَ

ليست قَدَرًا،

وأنَّ النّارَ يُمكِنُ أن تَصيرَ

قَبَسًا لِلدِّفْء،

لا مَقصَلَةً لِلعُيون.

تَعويذَةُ النِّسيان

وهُناك،
في الزَّوايا الَّتي تَغُصُّ بِمَرارَةٍ
أَشَدَّ مِن البَحر،
يَنهَضُ غُصنٌ أَخضَرُ
مِن بَينِ الشَّوك،
كَأَنَّهُ يُخفي في جُذورِهِ
تَعْويذَةَ النِّسيان،
لِيُعَلِّمَ الحَجَرَ كَيفَ يَتَسامَحُ مَعَ الرِّيح،
ويُعَلِّمَ اللَّيلَ كَيفَ يَترُكُ لِلفَجرِ مَكانًا.

حينَ يَزْهُو التُّراب

مِن بَينِ الحَصى انبَثَقَ غُصْن،
يَحفُرُ في التُّرابِ طَريقًا لِلخُضْرَة،
كَأَنَّهُ يُقيمُ وُعُودًا لِلأَرْض
بِأَنَّها لَن تَبْقَى عَقيمًا.
هُوَ الغُصْنُ الَّذي يُؤمِنُ أَنَّ المَوتَ

يُمكِنُ أن يَكُونَ خُرافَة،
وأنَّ الطِّينَ يُخفي أَكثَرَ مِمَّا يُعلِن،
فَتَراهُ يَحمِلُ في بُذورِهِ
نُجومًا صَغيرَة،
يَغرِسُها في القَلْبِ
كما يَغرِسُها في التُّراب.

صَوْتُ الغَيْب

وفي الغِياب،
حِينَ يَتَراكَمُ اللَّيلُ في العُيون،
ويَرتَجِفُ الأَرْواحُ مِن وَحدَتِها،
يُرسِلُ الطّائِرُ الَّذي لا يُرى جَناحُهُ
هَسْهَسَةً خَفِيَّة،
تَلمَسُ القَلبَ البَعيد،
وتُخبِرُه أنَّ أَحَدًا ما
أَوقَدَ شَمعَةً لِأَجْلِه،
وأنَّ أَحَدًا ما
حَمَلَ اسمَهُ إلى السَّماء.

نافذةٌ لا تُغلِقُ قلبَها

في اللَّيلِ،
حِينَ تَحتَشِدُ العَواصِفُ وتَضِلُّ الطُّرُق،
يَلمَعُ مِصباحٌ في نافِذَةٍ بَعيدة،
يُخبِرُ العابِرَ أنَّ هُناكَ مَنْ
يَنتَظِرُهُ بِخُبزٍ سَاخِن،
وبِسَقفٍ يَعرِفُ كيفَ يُطَمْئِنُ.
لَيسَ المِصباحُ زَيتًا وَنَارًا،
بَل قَلبٌ تَعلَّمَ أن يَتَّسِع،
فَيَجعلُ الغُرَباءَ أهلاً،
ويَجعَلُ الطَّريقَ المُقفِرَ
يُشبِهُ وَطنًا.

فيضُ القَلب

وأخيرًا،
حينَ ضاقَت الأرْضُ بِمَن عَلَيها،
وانكَمَشَ القَلْبُ في صَحراءِ ذاتِه،

انفَجَرَ الحَجَرُ ماءً،

وانسَكَبَ النُّورُ مِن جُيوبٍ خَفِيَّة،

فَفهِمَ الجِياعُ أنَّ الرِّزقَ لا يُعَدُّ نُقودًا،

بَل قد يَكونُ ظِلًّا

أو دَمعَةً أو دِفئًا.

أيُّها السّائِرون،

احمِلوا مِن حُقولِكُم ما استَطَعتُم مِن فَيْض،

لَيسَ الذَّهَبُ وَحدَهُ يُروي،

ولا الحَجَرُ وَحدَهُ يُبنِي،

لَكِنَّ القَلْبَ حِينَ يَتَفَتَّحُ،

يَغدو لِلنّاسِ سَماء،

وتُصبِحُ الأرْضُ بِكُم

فضاءً للحياة..

الظَّمَأُ وَالنُّورُ

في زمنٍ تتناوب فيه الأوجاع على الأرواح، كأنّها جيوش لا تهدأ، أعيشُ على هامش الحلم، مثقلاً بتراب الخيبات، محاطًا بأدخنة الحروب وظلال الخراب. ولأنّ النفس لا تملك سوى شظاياها، فقد اختزلتُ العالم في حاجتي البسيطة: «قطرة ماء، وعُشر رغيف، وثانية صفاء». أشياء صغيرة كأنفاس العصافير، لكنها تحمل في جوهرها شرط البقاء، وأفق الاستمرار، ومفتاح الحلم بعالم أكثر رحمة. ومن هذا الظمأ الروحي، وهذه الرغبة الجائعة للسلام، تنبثق هذه القصيدة، سعيًا وراء معنى يتجاوز العدم.

***

يا أيّها الظمأُ المقيمُ في شراييني،

أيّها الجوعُ المتربّصُ في خلايا الروح،

لم أطلب ذهبَ السلاطين، ولا تاجَ الأباطرة،

إنّما قطرةٌ واحدة،

عشرُ رغيفٍ من قمحِ الجدّات،

وثانيةُ صفاءٍ تُعانقُ السماءَ بلا شوائب،

لكي أستمرَّ في الحلم،

لكي أستمرَّ في مقاومة العدم.

أسمعُ الأرضَ تنوحُ تحت أقدام الغزاة،
وتبكي الأنهارُ في صدورِ الصخور،
البيوتُ الرمادية تبتلعُ أطفالها،
والشجرُ يخلعُ أوراقه كمن يسلخُ ذاكرته.
ومع ذلك،
يظلُّ الحلمُ يرفرفُ مثل طائرٍ أعمى
يريد أن يكتشفَ طريق النور.
في كلِّ حجرٍ أسمعُ صرخةَ نبيّ،
وفي كلِّ قطرةِ دمعةٍ
تختبئُ رسالةُ حكيمٍ غابر،
وفي كلِّ يدٍ مرتجفةٍ فوق موائدِ الفقراء
أشعرُ أنّ الكونَ يبحثُ عن عدلٍ مفقود.
أنا ابنُ الرمادِ،
حيثُ تتناسلُ الحروبُ من بطنِ الحروب،
وأنا شاهدٌ على خرابٍ
يُقيمُ مذابحَه في أعماقِ الذاكرة.
لكنّي لم أفقد يقيني

أنّ زهرةً صغيرة قد تُفزعُ الليل،

وأنّ قنديلًا واحدًا يكفي

لتقويضِ إمبراطوريةِ الظلام.

يا أيّها الخبزُ الطاهر،

يا أيّها الماءُ الذي يشبهُ غناءَ الأمّهات،

يا أيّها الصفاءُ الذي يُشبهُ صمتَ الحكماء،

أنتم أجنحتي الأخيرة،

ووصيّتي الأولى،

وَفَضَائِيَ الَّذِي لَا يَضِيقُ.

سأفتحُ جراحَ الروح

كما تفتحُ الأرضُ سرَّ البذرة،

وأزرعُ فيها شظايا المعنى،

ربّما يولدُ منها وطنٌ لا تغزوهُ الأدخنة،

وربّما ينهضُ منها إنسانٌ

يحملُ دمعةً مكانَ السيف،

وقصيدةً مكانَ المدفع.

وإذا سألني الغدُ: من أنت؟

أقول: أنا الظمآنُ الذي صنعَ من قطرةٍ بحرًا،
ومن عُشر رغيفٍ مدينة،
ومن ثانيةٍ خلودًا.

***

وهكذا، أواصلُ سيري في دربٍ لا ينتهي،
محملًا بقطرةٍ لا تجف،
وبأرغفةٍ لا تتعفّن،
وبصفاءٍ لا تفسدهُ العواصف.
أسيرُ نحو أفقٍ لم يولد بعد،
أفقٍ قد يكون شمسًا
أو قد يكون وهْمًا،
لكنّي سأظلُّ أمشي،
لأنّ الحلمَ نفسهُ هو النجاة،
ولأنّ الأملَ هو آخرُ ما تبقّى لي
في عالمٍ يُحسنُ الخراب...
ويخجلُ من الرحمة.

أَنَاشِيدُ النَّزِيفِ السَّمَاوِي

«حين تبكي السماء بصمتها، لا أحد يدري إن كانت تعلن سرًّا، أم تُخفيه.»

(١)

حين أرخى الغيمُ وشاحَه الرماديّ،
ارتجفت الأرضُ كطفلةٍ تستعدُّ للبكاء،
وتداعت في الصمتِ أسئلةٌ لم تُسْأَل،
كأنّ السماءَ تهيئُ اعترافًا عسيرًا،
أو تُخفي في حنجرتها نشيجًا يتردّد منذ بدء الخليقة.
تتشابك الأفقُ مع صمتٍ لم يولد بعد،
فتصبح الرياحُ همسًا خافتًا بين أطراف الغيم،
والأشجارُ تصغي دون أن تحرك أغصانها،
كأنها تلتقط ارتعاشةً سرّيةً قبل أن يُبوح بها العالم.
يتلو الغيمُ طقوسه بصمت،
ويكتب فوق الرؤوس خطوطًا من فضولٍ غير مرئيّ،
فتتساقط أصداء هذه الخطوط في الأرض كما لو كانت

بذورًا أولى،

تستقرّ في الذاكرة قبل أن تُرى العين،

وتنمو في عقل الزائرين كلغةٍ لم تُحفظ من قبل،

تدعوهم للتيه بين الولادة والوجود،

بين بداية شيءٍ لم يحن أوانه والبوح المؤجّل الذي ينتظر اللحظة المناسبة.

(٢)

ينحدرُ النزيفُ من مقلةِ الغيم،

كأنّ الأفقَ يتفتّتُ إلى مرايا صغيرة،

كلُّ شظيّةٍ تعكسُ وجهًا من وجوهنا،

وجهًا نعرفهُ ولا نتذكّره،

أم وجهًا لم يولد بعد؟

تغدو الطرقاتُ كصفحاتٍ مبتلّة،

تطمسُ الكلمات القديمة لتكتبَ نصًّا جديدًا

لا قارئ له سوى الغياب،

ولا يد تُمسك به سوى ظلّ نسيانٍ يتلوّى بين الأرصفة.

تتراقصُ الأشباح القديمة على مياه الظل،

تُعيد ترتيب حكاياتٍ لم تُحكَ بعد،

وتسقطُ منها همساتٌ تشبه رَفّةَ الضوء حين يختبئ خلف السحاب،

كأنها نثرٌ بلا زمن،

يخترق ذاكرة المدينة والسماء معًا،

فتصبح كلُّ خطوةٍ على الطريق إعادة اكتشاف،

وكلُّ انعكاسٍ في المرآة قطرةٌ من سرٍّ لم يُحلّ بعد،

ونحن نمرّ بين هذه الشظايا،

نتلمّس غموضنا كما يتلمّس الغريب خيطَ الضوء في عتمة الليل.

(٣)

تتدافعُ الدموعُ السماوية،

فتنهضُ رائحةُ الطين ككتابٍ قديمٍ تُسَرّدتْ صفحاته في صمتٍ أبديّ،

تتشبّث بجذوره كما تتشبّث الروحُ بذاكرتها الضائعة،

وتتلو الأشجارُ صلواتٍ غامضة
لا تُفهم إلا بلسان الطيور،
ولا تُدرك إلا حين يهمس النسيم بما لم يُقال.
كأنّ العالمَ يذوبُ في طقسٍ كونيّ،
يختلط فيه الصخب بالسكوت،
والنور بالظل،
ولا بداية له ولا ختام،
والأرضُ تصغي كعاشقةٍ ضلّت طريقها إلى جسدٍ غريب،
تلتقط همسَ السماء كما يلتقط العاشق نبضَ المحبوب،
وتحمل كلَّ ارتجافٍ ونبضةٍ كما لو أنها تكتب سرًّا لا يقرأه سوى الغياب.

(٤)

يتحوّل النزيفُ إلى جوقةٍ صاخبة،
تطرقُ النوافذَ بأصابعٍ من زجاج،
وتغسلُ الوجوه حتى تفقدَ ملامحها،
فنصيرُ جميعًا صفحةً بيضاء،

لا توقيع عليها سوى خَفقةَ الضوء.

تتجاوب المدينةُ بأصداءٍ خفية،

تتناثر الأرصفة كأوراقٍ مهملة،

والجدران تتنفس قصصًا لم تُحكَ بعد،

وتتسلل عبر الشقوق همساتُ حضورٍ غامض،

كأن كلّ شيء يهمس: «هنا كنتُ، وهنا سأظلّ»،

لكننا لا نعرف إن كنا نحن من نهيم أم هي التي تهيم بنا.

من قال إن السماء تبكي؟

ربما نحن من ينهمرُ في شكلِ قطرات،

ونتفتّتُ لنعودَ أدراجنا إليها،

كحروفٍ ضائعةٍ في نصٍّ مكتوب على وجه الزمن،

نعود لنلتقط أنفسنا من انعكاساتٍ غير مكتملة،

ونصوغ من الفقد معنىً مؤجلًا،

أو نكتشف أننا مجرد ارتجافٍ طويل

يمتزج بالظلال قبل أن تُدركه العيون.

(٥)

ثم، فجأةً،

يتراجعُ كلّ شيء،

كأنّ اليدَ التي فتحت السحابَ أغلقتْه،

ويبقى في الهواء طيفُ أنفاسٍ معلَّقة،

وفي القلب سؤالٌ يتردّد بلا جواب:

هل كان النزيفُ اعترافًا مؤجّلًا،

أم مجرّد قناعٍ للغياب؟

تخبو الأصواتُ شيئًا فشيئًا،

وتذوب الألوان في دائرةٍ من صمتٍ ممتدّ،

ويصبح الصدى في الأزقة

متاهةً من الأسئلة التي لم تُطرح بعد،

كل خطوةٍ على الأرض ترتجف

كما لو أنها تُعيد ترتيب الوجود،

والسماء تحتفظ بأسرارها

كما تحتفظ الذاكرة بالنبضات المنسية،

والأرضُ لا تزال ترتجفُ بحيرةٍ غامضة،

كأنها تستعدُّ لبوحٍ آخر

لم يحن أوانه بعد،

بوحٍ يقترب من الحافة حيث يتلاقى الصمت مع الغياب،

وحيث تتكشف كلُّ الإشارات لتترك في القلب غموضًا آخر

فتبقى الحقيقة معلّقة بين الظل والضوء،

بين ما كان وما سيأتي،

بين أحلامنا المبعثرة وعالمٍ لم يُكتشف بعد.

(٦)

من نزيفِ العلوِّ تنبثقُ الحشائشُ كأنّها حروفٌ خضراء،

وتتفتّحُ الأزهارُ كما لو أنّها أسرارٌ أُفرِج عنها من عتمةٍ طويلة،

والأنهارُ تستعيدُ سيرتها الأولى

ككتبٍ عتيقةٍ يُعاد فتحها بعد نسيان.

لكن، هل تلك النبتةُ التي تشقُّ الترابَ

وليدةُ وشاحٍ انفرج في السماء،

أم أنّها صدىً لصبرِ الأرض؟

هل الزهرُ الذي يلوّحُ في الريح

حقيقةُ التشظّي،

أم مجرّد طيفٍ يغرينا بمواصلة الانتظار؟

كلُّ أثرٍ نازلٍ من العلوِّ يبدو وعدًا مؤجّلًا،

وكلُّ جذرٍ يصعدُ إلى السطح كأنهُ نصٌّ باطنيّ لم يحن أوانُ قراءته.

هكذا،

يمكثُ الأثرُ بين اليدين،

ولا ندري:

أهو ثمرةُ النزيف السماوي،

أم أنّ النزيفَ لم يكن سوى ذريعةٍ

كي تتكلّم الأرض بلغتها المضمرة؟

وصيّة الميّت الذي لم يُدفَن

في السّاعةِ الخامسةِ إلّا خوفًا،
عُلِّقَتِ المدينةُ من قدميها على حبلِ خبرٍ عاجلٍ.
لم يكنْ ثمّةَ صوتٌ
سِوى تنهيدةٍ طويلةٍ تَصعدُ من حُنجرةٍ بلا جسدٍ،
وتختنقُ في أعلى المئذنةِ.
كانَ الميّتُ ممدّدًا في غرفةِ الانتظارِ،
يكتبُ بخنجرٍ صَدِئٍ
وصيّتَهُ على قفا ورقةٍ محروقةٍ:
«الهواءُ لا يصلُحُ للذين لا يكذبون».
مرّت هيئةُ المحكمةِ...
بوجوهٍ لا ملامحَ لها،
بمطارقَ مصنوعةٍ من عظامِ اعترافاتٍ قديمةٍ،
وكتبوا في ملفّهِ كلمةً واحدةً:
«مُثبَّتٌ عليهِ الصمتُ».

في السّاحةِ،

اصطفّ الواقفون بلا عيونٍ،

كلٌّ يحملُ سكينًا في جيبهِ،

وكلٌّ يدّعي أنَّهُ جاءَ ليبكي.

الحبلُ الذي هُيِّئَ للشنقِ،

لم يكنْ من القَنبِ،

بل من أسلاكٍ شائكةٍ،

نُسِجت من أسئلةِ الأطفالِ التي لم تجدْ جوابًا،

ومن أحلامِ الجدّاتِ التي لم يُسمحْ لها أن تولدَ.

وقفَ الميّتُ بين اثنينِ:

أحدُهما يُشبهُهُ حتى الضياعِ،

والآخرُ يبتسمُ بأسنانٍ مكسورةٍ.

لم يسألْ عن السببِ،

فالميّتُ لا يُفاوضُ على معنى،

ولا ينتظرُ إنصافًا من نُعاسِ العدلِ.

قالَ أحدُهم:

«أعدِموهْ... فقد شوَّهَ الحكايةَ»!

قالَ آخرُ:

«بل خلّصونا من مرآةٍ لم تَعُدْ تعرفُ المجاملةَ».

والرّيحُ...

كانتْ تَمسحُ دموعًا لم تنزلْ،

وتذرُّ رمادَ المحاكمِ على وجوهِ الأبرياءِ.

في اللّحظةِ الأخيرةِ،

حينَ ارتجفَ الحبلُ،

سقطتْ من جيبِ الميّتِ ورقةٌ صغيرةٌ

كتبَ فيها بحبرٍ غيرِ مرئيٍّ:

«لقد أُعدِمتُ مرّةً حينَ صمتُّ،

وأُعدَمُ الآنَ لأنّني تكلّمتُ».

ثمّ سادَ صمتٌ غريبٌ،

كأنّ الأرضَ ابتلعتْ شهادتَها،

وكأنّ السماءَ لم تكنْ هناكَ أصلًا.

في اليومِ التالي،

أُعلنتْ براءتُهُ في صحيفةٍ باهتةٍ،

تحت إعلانِ تخفيضاتٍ آخرِ الموسمِ.

ولا أحدَ سألَ:

منِ الذي ماتَ؟

ومنِ الذي بَقِي؟

حينَ يُولَدُ الضّوءُ مِنَ الرَّماد

حينَ يَختارُ النّورُ أن يَسكُنَ في العَتْمَةِ، يَتَجَلّى المَعنَى لا في ذاتٍ تُنقَذُ، بَل في ذاتٍ تُمحَى.

(١)

صَرخةٌ اِنْبَجَسَتْ مِن جَوْفِ الغِيابِ،
كَأَنَّها شَقَّتْ سِتارَ اللَّيْلِ بِسَيْفٍ مِن نارٍ،
دَمعَةٌ تَعَلَّقَتْ في أَهْدابِ الرِّيحِ،
تَذُوبُ وَلا تَجِدُ كَفًّا تَحْتَضِنُها.
الجَسَدُ يُقاوِمُ فِتْنَةَ العَدَمِ،
وَالرُّوحُ تَسْتَغيثُ بِظِلٍّ لا يَظْهَرُ،
تُمسِكُ بَطْنَها كَأَنَّها تُمسِكُ الأَرضَ،
حِينَ تَنشَقُّ عَلى وِلادَةٍ مُتَرَدِّدَةٍ.

(٢)

هُنا الجُدْرانُ عَمياءُ لا تَسْمَعُ غَيْرَ الأَنينِ،
أَبوابٌ خُشِنَتْها تُرابٌ مُتَحَجِّرٌ،

وَالرّائِحَةُ جُثَثٌ تَسيرُ في الهَواءِ.

مَمَرّاتٌ تَئِنُّ، أَسِرَّةٌ تَصْدَأُ كَالعِظامِ المَهجورَةِ،

وَلا يَدٌ تَمْتَدُّ إِلّا لِسَتْرِ العَجْزِ بِلحافٍ بالٍ.

المَكانُ مَوْتٌ مُؤَجَّلٌ،

وَالزَّمَنُ يُسَطِّرُ عارَهُ عَلى كُلِّ زاوِيَةٍ.

(٣)

ساعَتانِ بَيْنَ هاوِيَةٍ وَنَجاةٍ،

سِكّينٌ تَتَرَدَّدُ في يَدٍ ثابِتَةٍ،

وَعُيونٌ تَقْرَأُ في اللَّحْمِ ما لَم تَكْتُبْهُ الكَواكِبُ.

الأَدَواتُ كَالأَلاعِبِ الصَّدِئَةِ،

لَكِنَّ اليَقينَ نارٌ تَصْقُلُ المُسْتَحيلَ.

يُفْتَحُ الجَسَدُ كِتابًا قَديمًا،

وَتَخْرُجُ مِنهُ الحَياةُ عارِيَةً

تَتَلَمَّسُ وَجْهَ الضَّوْءِ.

(٤)

أَجْنِحَةُ الزُّجاجِ وَالحَديدِ،
أَطِبّاءٌ كالسُّحُبِ المُتَكاثِفَةِ،
يُحاصِرونَ لَحْظَةً صَغيرَةً هَرَبَتْ مِن مَوْتٍ قَديمٍ.
المَرْأَةُ تَعودُ ظِلًّا يَمْشِي عَلى يَقينٍ آخَرَ،
يَقْرَأُ في عُيونِ الجَمْعِ:
مِن أَيْنَ خَرَجَتْ هذِهِ المُعْجِزَةُ؟
وَأَيُّ يَدٍ أَعادَتْ نَبْضَ الفَجْرِ مِن حافَّةِ الرَّمادِ؟

(٥)

يُفْتَحُ بابُ السُّلطانِ عَلى مِصْراعَيْنِ،
وَيُسْتَدْعى مَن أَلْقى قَلْبَهُ في مِحْرابِ الآخَرينَ.
قَصْرٌ مِن صَمْتٍ وَذُهُولٍ،
وَعُيونٌ تُفَتِّشُ في وَجْهِهِ
عَنْ سِرٍّ أَبى أَنْ يُقالَ.
الرَّجُلُ يَحْمِلُ خُطُواتِهِ كَقَصيدَةٍ،

لا تُغْريها الأَبوابُ العالِيَةُ،
وَلا الكَراسِيُّ الَّتي تَنْبُتُ مِن رُخامٍ أَبَديٍّ.

(٦)

قِيلَ لَهُ: تَمَنَّ ما تَشاءُ،
اِفْتَحْ يَدَكَ لِلذَّهَبِ وَلِلْمُلْكِ وَلِلظِّلالِ المائِلَةِ.
لَكِنَّهُ أَدارَ بَصَرَهُ عَنْ ذاتِهِ،
وَنَظَرَ إِلى أَرْضٍ كانَتْ تَحْتَضِرُ
بِعُيونِ أَطْفالٍ لَم يَعْرِفوا غَيْرَ الخَوَاءِ.
فَقالَ:
أَعْطُونِي نَبْعًا لا لِي، بَل لِلآخَرينَ،
أَعْطُونِي بَيْتًا لِلجُرْحى،
يُقيمونَ فيهِ ما تَبَقّى مِن أَناشيدِهِم.

(٧)

فَانْهَمَرَتْ حِجارَةُ الضَّوْءِ،
وَاعْتَلى الحَديدُ صَهْوَةَ المَعْنَى،
وَنَبَتَتْ مِن قَلْبِ المَدينَةِ شَجَرَةٌ

تُظَلِّلُ المَوْجوعينَ.
كُلُّ غُرْفَةٍ شَمْعَةٌ،
وَكُلُّ سَريرٍ جِسْرٌ فَوْقَ الهَاوِيَةِ،
وَكُلُّ جِدارٍ يُرَدِّدُ اسْمَ ذاكَ الَّذي
ذَوَّبَ نَفْسَهُ لِيُقيمَ لِلآخَرينَ جَسَدًا جَديدًا.

(٨)

هَكَذا تُعَلِّمُنا الأَرْضُ:
أَنَّ اليَدَ الَّتي تُهْمِلُ مِرْآتَها
تَصيرُ مِرْآةً لِلْجَميعِ،
وَأَنَّ مَنْ نَسِيَ ذاتَهُ في طَريقِ الآخَرينَ،
اِسْتَيْقَظَ في قَلْبِ الأَبَدِيَّةِ.
فَالْغايَةُ لَيْسَتْ ما نَأْخُذُ،
بَل ما نَتْرُكُ مِن ضَوْءٍ
عَلى عَتَباتٍ لَمْ نَدْخُلْها نَحْنُ،
لَكِنْ سَيَدْخُلُها القادِمونَ.

غُصنٌ يضيءُ في ريح الغياب

(إلى روح إبراهيم العجلوني – أبو سلطان)

يا صاحبي..
يا من انطفأ الجسدُ فيه،
وبقي صوته يمشي في الممرّات
كأنَّ الضوءَ
لا يقدرُ أن ينسى طريقَه.
ثلاثُ سنينٍ
والوقتُ يلمّ رمادَهُ من حولنا،
غيرَ أنّ ظِلَّكَ
ما زال يسبقُ خطونا
ويعلّمُنا
أنَّ الفقدَ ليس نهايةً،
بل نافذةٌ
تُطلُّ على ما لا يُرى.
يا شبيهَ الشجرِ الذي

يكتبُ على جذوعه تاريخَ الريح.

كنتَ إذا تحدّثتَ

تغيّر وجهُ اللغة،

وصارت حروفُها

مبلّلةً بذكاءِ الفلاسفة

ونقاءِ الفكرةِ الأولى،

كأنكَ تحملُ من الحكمة

جرحًا يتلألأ،

ومن النقد نافذةً

تتّسع لكونٍ كامل،

ومن السردِ نبرةً

يعرفها مَن عبروا أبوابَ الذاكرة.

يا أبا سلطان...

كنتَ صديقًا من

تلك الطبقةِ النادرة:

مَن تمشي معنا لا بجسدٍ

بل بوعيٍ

يسبق خطوات العالم.

مَن يرى في الكلمةِ
وطنـًا،
وفي الوطنِ
مسؤوليةً،
وفي المسؤولية
حياةً لا تنطفئ.
ما زلتُ أراكَ
كلما مررتُ على مقالاتك
التي كانت
تركضُ في صفحات الرأي
كأنها خيولٌ من نور.
كنتَ تكتبُ
لا لتنالَ إعجابًا
ولا لتضعَ وسامًا،
بل لأنَّ الحقيقةَ
كانت قنديلَ روحِكَ
الذي لا يهدأ.
وكنتَ حين تنتقدُ

تلمعُ في كلامك
سيوفُ الصدق
لا لتجرح،
بل لتكشِف
ما يختبئ خلفَ ستارةِ الكلام.
أذكرُ ضحكتكَ
التي كانت
تلوّحُ في الهواء
كشجرةٍ تعرفُ أن جذورَها
أعمقُ من محنِ الريح.
وأذكرُ صمتكَ
الذي يشبه
مكتبةً تُطفئ ضوضاء الكون،
وتُشعلُ في العقل
محاورةً لا تنتهي.
وأذكرُ كيف كنتَ
تفتحُ للمعرفةِ بابًا
حتى لو كان

العالمُ كلُّهُ
يبحثُ عن نافذةٍ ضيّقة.
يا من كان قلمه
يشبهُ سيفًا يلمعُ بالعدل،
مزاجُهُ دماثة،
وفكرُهُ تلألٌ من دُربة
لا يعرفُها إلا من اقترب
من صُهد التجربة.
ثلاثُ سنينٍ...
أقولها
فأشعرُ كأن الزمنَ
يفتحُ صفحةً ناقصة،
وأنَّ صورتك
ما زالت تقيمُ
على الطاولةِ
حيث تركتَ كتابًا
لم تُكملْ مقدمته،
وفكرةً كنتَ

تنوي أن تعبر بها

إلى جهةِ الغيم.

ثلاث سنواتٍ

ولا تزالُ

أحرفُ اسمك

تحملُ طزاجةَ المطر

على الرغم من الغياب.

يا صديقي...

علّمتني أن الكلمة

قد تنقذُ أمة،

وأن النقدَ

حين يكون صادقًا

يصيرُ مرآةً

لا تشفقُ على نفسها.

وأنَّ الكاتبَ

وإن تعب،

تسندهُ المعاني

لا المقاعد،

وتسندهُ الأرض

لا المراحل.

كنتَ شاعرًا

يمشي في اللغة

كما يمشي الضوءُ

في نَفَسِ الفجر،

وكانت استعاراتك

تتدلّى من الوعي

كثمرٍ جريء،

لا يخافُ أن ينضج

أمام أعين العالم.

وكنتَ فيلسوفًا

يُعيد ترتيبَ الأسئلة،

فيرى في السؤال

وطنًا آخر

لا يحتاج إلى جغرافيا.

وها أنا

أحاولُ أن أكتبَ عنكَ،

فأجدُ أن القصيدة

ضيّقةٌ على سعتك،

وأنّ الحروف

لا تنحني

إلا لظلّك،

وأنّي مهما ارتكبتُ

من صيغٍ عالية،

لن أبلغَ

قامتك التي

تتوكّأ على المعرفة

وتنهض.

يا صديقًا

كان حضورُهُ

أفصحَ من لغات العالم،

ورحيلُهُ

أعمقَ من قدرةِ القلب

على التحمّل.

نمْ هادئًا...

فالأرضُ التي ضمّتك
تعرفُ أنها
تحفظُ في جوفها
عقلًا
لا يتكرّر،
وروحًا
كانت تمشي
كأنها جناحٌ من وعي.
وأنا هنا،
أمدّ قصيدتي
كجسر
بين يومٍ مضى
ويومٍ لا يزالُ
يسأل عنك.
أكتبُ
لأحفظَ ما استطعتُ
من هذه الصداقة،
ولأقولَ للغياب:

إنَّ إبراهيم

لم يرحل،

بل غابَ وجهُهُ فقط،

أما أثرُه

فهو الشجرةُ

التي لا تخضعُ للخريف.

سلامٌ عليك...

يا من يجعلنا الفقدُ

نبحثُ عنه

في الكلام،

فنجدُهُ

ينامُ بين السطور.

أُفُقٌ يُصَلِّي بِلُغَةِ الْمَطَر

مفتتح: في مدينةٍ يَغسِلُها المطرُ كلَّ مساء، ينتعشُ المعنى حين يجدُ قلبًا يَتّسِعُ له.

***

ليسوا جماعةً تُعَرِّفُ نفسَها باللافتات،

بل خُطُوَاتٌ هادئةٌ،

تَصِلُ بين رصيفٍ وآخر

دون أن تُحدِثَ ضجيجًا.

يمشون على سِكّةِ التوازن،

كما يمشي الضوءُ بين زجاجتين،

لا ينكسرُ،

ولا يَتَباهى بعبوره.

***

في المدينةِ التي تُصغِي للبحرِ،

ولا تُفصِحُ عن سرِّها،

كانوا يُشعِلونَ مساءاتهم

بفانوسٍ من إصغاء.

لا يرفعون الصوتَ

كي يُقنِعوا الهواء،

ولا يُدلونَ المعنى من شُرُفاتِ اليقين.

يتركون للخطوةِ

أن تتعلَّمَ الطريق.

يقولون:

الإيمانُ ليس جدارًا،

بل نافذةٌ

تَتّسِعُ حين نفتحها ببطء.

في حلقةٍ من دَفءٍ خفيف،

تتَعانَقُ الكلماتُ

كما تتَعانَقُ أوراقُ الشجر

عند أوّل خريف.

لا فواصلَ حادّة،

ولا سلالمَ تُفَضِّلُ قدمًا على أخرى.

يمرُّ الذِّكرُ بينهم

كنَفَسٍ لا يُرى،

يُرَتِّبُ القلبَ

ويتركه حرًّا.

يُقاربون النصَّ

كما يُقارب الرسّامُ قماشه:

مسافةٌ كافية كي لا يجرحه،

وقُربٌ يكفي ليمنحه حياة.

في فهمهم،

الدينُ ليس سِياجًا،

ولا ميزانَ تفاضل،

بل ماءٌ

يُجيدُ شكلَ الإناء

دون أن يفقدَ صفاءه.

وحين يختلفون،

يختلفون كما تختلفُ الألوانُ

في غيمةٍ واحدة،

لا تُلغي ضوءَها،

بل تُعمِّقه.

في المدينةِ التي تُكثِرُ من الأسئلة،

كانوا يضعون علامةَ استفهام

مكانَ السِّهام،

ويصنعون من الحوار

جسرًا لا يُطالِبُ العابرين

بإثباتِ أسمائهم.

الفنُّ عندهم،

لغةُ الروح حين تتعبُ الحروف،

والتعليمُ،

يدٌ تُمسكُ بالكتف لا بالعصا،

والخدمةُ،

وجهٌ يبتسمُ قبل أن يسأل:

كيف أكون معك؟

***

وهكذا،

في مدينةٍ تُجرِّبُ أن تكون أكثر إنسانية،

يمضون...

خفيفين كالمطر،

واضحين كالصمت،

ويتركون خلفهم أثرًا

يشبه الطريق

حين نكتشف فجأة

أننا وصلنا

دون أن نشعر.

أطلسٌ يرفضُ الخرائط

انطلاقًا من الرؤية الساخرة والعميقة التي يطرحها الكوميدي الأمريكي إيدي غريفين في مساءلته لفكرة «الاكتشاف»، واستنادًا إلى نقده لهيمنة الرواية الأحادية...

***

منذ أن تعلّم الضوءُ أن ينطقَ باسمه،

والأرضُ تمحو في الخفاءِ ما تكتبهُ الأقلام،

كأنّ كلَّ خريطةٍ تُرسمُ فوق وجوهِ التلال

تخونُ جرحَها الأول

وتعيدُ الولادةَ لغير مَن وُلدوا عليها.

في ليلٍ يتهجّى ظلالَهُ على مهل،

يُطلُّ السؤالُ منشقًّا عن صمتٍ حجريٍّ قديم:

مَن يملكُ حقَّ أن يقول:

«هنا يبدأ العالم»؟

وهنا تنتهي الحكاياتُ التي لم تكن تبحثُ عن مكتشف،

بل عن أُذنٍ تصغي لنبضِها الأول.

تتداخلُ الأصواتُ في قاعِ الذاكرة:
صوتُ أرضٍ تختزنُ دقّاتها في الطين،
وصوتُ رحّالٍ يرى ذاته بدايةً لكلّ طريق،
وصوتُ خريطةٍ تشهقُ كلما حاولوا
أن يدقّوا مسمارًا في خاصرةِ ريح.
ليس الاكتشافُ حدثًا،
بل كلمةٌ هائمةٌ
تحاولُ أن تُخفي وراء لمعانها
جثثَ الحكاياتِ المطموسة تحت التراب.
وهكذا...
يمشي الإنسان في أثرِ ظله،
يحملُ وهْمَ البداياتِ في كفٍّ،
وفي الكفّ الأخرى
يتدلّى تاريخٌ مسروقٌ
ينتظرُ مَن يقرأه كما كان،
لا كما أرادوه أن يُقرأ.

***

في البدءِ،
لم تكنِ الأرضُ تنتظرُ قادمًا يحملُ أسماءً جاهزة،
كانتْ تُقيمُ في نبضِها
وتُهدهدُ ترابَها
كما تُهدهدُ أمٌّ سريرًا يسبقُ ميلادَ طفلٍ مجهول.
وحينَ أطلَّ الرُّحَّلُ بأقدامٍ من رياحٍ متعجّلة،
ارتجفتِ الجهاتُ الأربع،
وانكمشَ النهارُ
خشيةَ أن يُعادَ صوغُه في مرآةٍ لا تعرفُ صورته.
قالتِ الأرضُ لهم بصمتٍ لا تُترجمهُ اللغات:
«ليسَ في وسعِ الخطوةِ أن تمنحَ المعنى،
ولا في وسعِ الظلِّ أن يُعلنَ الفجر».
لكنهم أخرجوا من جُعبتهم حقولًا من حبر،
ومقاييسَ للضوء،
ومساميرَ تغرزُ الحدود في خاصرةِ الريح.
كتبوا على جبين التلال: «هنا البداية»،
وهي تعرفُ أن البدايةَ

كانتْ قبل أن تُخترَع البوصلة

وقبل أن تتعلّم الشمسُ أسماءَ الغزاة.

في المساءِ،

جلسَ أحدُ الغرباءِ فوق صخرةٍ

تتلو صلواتٍ حجريّة

منذ آلاف الأزمنة،

وأخذَ يحدّثُ نفسه:

«ما أعجبَ هذا الصمت...

كأنّه ينتظرُني!».

ولم يدرِ أن الصمتَ

لم يكن ينتظرُ إلّا هبوبَ الريح

لتنقله إلى كهفٍ آخر

كما فعلَ منذ آلاف السنين.

تشقّقتِ الأرضُ تحت خطواته،

لا غضبًا،

بل ضجرًا من تكرارِ حكايةٍ

عرفتْ نهايتها قبل أن يبدأ سطرُها الأول.

في ليلةٍ حالكةٍ،
انهارَ أحدُ النجوم فوق سِجلٍّ من الخرائط،
فذابتِ العلاماتُ،
وتناثرت الأسماءُ
كما يتناثرُ القمحُ من كفّ فلاحٍ
يعرف أن الأرضَ لا تُزرعُ بالألقاب،
بل بالعرق.
ساعتها فهمَ الأطلسُ - ذاك الذي نُسِبت إليه الأكوان -
أن الخريطةَ ليست مرآةً للوجود،
بل مرآةٌ للعين التي تريد أن ترى
ولا تريد أن تفهم.
ولأول مرةٍ
رفعَ أطلسُ وجهه عن الورق
وقال للريح:
«احملي وجهي كما كان...
لا كما أرادوا أن يكون».

***

وهكذا...

يبقى الأطلسُ معلّقًا بين أيدٍ كثيرة،

كلُّ يدٍ تحاول أن تمنحه شكلًا يناسبُ مرآتها،

وكلُّ مرآةٍ لا ترى سوى صورتها

منعكسةً على جلدِ الأرض.

وتبقى الخرائطُ، تلك التي ظنّوا أنها تُخضعُ الجهات،

تتلوّى تحت وطأة الأسئلة:

هل تُرسمُ الحدودُ بالحبر،

أم بالذاكرة؟

هل الطريقُ طريقٌ لأنّ أحدًا سار فيه،

أم لأنّ آخرَ خاف أن يراه؟

في صمتٍ يتدلّى من شقوق الزمن،

تنهضُ الأرضُ ككائنٍ يعيد ترتيب نبضه،

وتهمسُ للريح:

«لا تُكملي قصّةً لم أختر نهايتَها».

وفي الجهة الأخرى من العالم،

يواصلُ الإنسانُ جمعَ ظلاله المتناثرة،

يحاولُ أن يفهم:

هل يسيرُ نحو الحقيقة

أم نحو صورةٍ صنعها ليصدّقها؟

هل يكتشفُ الكون،

أم يكتشفُ هشاشةَ رؤيته له؟

كلُّ شيءٍ يظلُّ معلّقًا

بين عينٍ تريدُ أن تمتلك الضوء،

وقلبٍ يعرفُ أن الضوء

لا يُملَك،

بل يُعاش.

وقد يُخيَّلُ للبعضِ أن القصيدة تكتب عن أرضٍ نُهبت،

ويقرؤها آخرون بوصفها فكرةً صودرت،

ويربطها غيرهم بتاريخٍ يُعاد تشكيله،

بينما يلمح فيها آخرون إنسانًا يبحث عن مكانٍ لا يتوه فيه.

لكنها – في حقيقتها –

لا تقول شيئًا واضحًا،

ولا تُخفي شيئًا كاملًا،

بل تتركُ للروح أن تتعثّر في تأويلها
كما تتعثّر القدم في دروبٍ لم تُمهَّد بعد.
وفي آخر المنعطف،
حين يتوقّف المرء ليلتقط أنفاسه،
تلمعُ جملةٌ غامضة في الهواء:
«هل يكتشفُ الإنسان طريقَه...
أم يكتشف الطريقُ حقيقةَ الإنسان»؟
وتواصل القصيدة سيرها،
لا تبحث عن نهاية،
ولا تمنح بداية،
بل تفتحُ بابًا
يستطيعُ كلُّ مَن يعبره
أن يراه شبيهًا بعالمه،
أو بجُرحه،
أو بسؤالٍ لم يجد له جوابًا.

حقولٌ لا تزهرُ في المرآة

في فنجانٍ من خزفٍ أعمى،
ذابَ الصباحُ أكثرَ مما يجب،
حتى إنّ الطيرَ الذي مرّ فوقه
أصابته نوبةُ سُكّرٍ،
فاصطدمَ بالنافذةِ
كأنّ الضوءَ قد خانَ الريش.

***

غسلتُ يديَّ من الرخام،
فرأيتُ الماءَ يركضُ نحوي
وفيهِ عطرٌ لا يعرفني،
يقول:
«هنا، لا تُقاسُ الطهارةُ بالنوايا،
بل بعددِ المناشفِ المسروقة
من الغياب».

***

في وليمةٍ أقامتها الريح،
تكوّمت الصحونُ على بعضها،
كلُّ طبقٍ يبلعُ ظلَّه،
والكفوفُ تُطعِمُ ما لن يُهضم،
ثمّ تعودُ إلى أفواهٍ
لا تجوعُ إلا حين تشبع.

***

رأيتُ صفًّا طويلًا من الظلال،
كلُّ ظلٍّ يسرقُ جزءًا من الضوء
الذي أمامه،
وفي آخر الطابور
رجلٌ يحرِّكُ الرملَ برجليه
حتى انزلقَ أمامهُ الزمن.

***

كان على الرصيفِ
قمرٌ من ورق،
التقطهُ صبيٌّ

وأخفاهُ في جيبِه،
ثمّ أنكرَ وجهَ الليلِ
وقال: «الضوءُ لي
لأني رفعتُ رأسي أولًا».

***

في متحفِ الأسماء،
رأيتُ شجرةً بلا جذور،
يُسقِيها الناسُ بالمجدِ الوراثيّ،
وكان كلُّ غصنٍ يكتبُ اسمًا
من جهةِ الأب،
ثمّ ينكرُ الثمارَ
إن لم ترفعْ رأسها بما يكفي.

***

في الزحام،
كانت الخطى تُعيدُ تشكيلَ الشوارع،
من لا يعرفُ الرقصَ
عزفَ على أكتافِ الآخرين،

والموسيقى كانتْ

ضربًا من الارتقاءِ السريع

نحوَ الشرفةِ المُنقوشةِ بالغياب.

***

شاهدتُ لونًا

يُزاحمُ لونًا آخر

عند مفترقِ الرؤية،

كلُّ إشارةٍ تسيرُ وحدها،

وكلُّ عابرٍ يفتحُ الطريقَ بساقيه،

كأنّ القوانينَ مجردُ أقمشةٍ

تُفصَّلُ حسبَ القياس.

***

تحتَ الشجرةِ التي لا ظلَّ لها،

جمعَ العابرونَ

ما تساقطَ من أحلامِ غيرهم،

ثمّ باعوها للفجرِ

بثمنٍ بخس،

وقالوا:

«النورُ لمن رآهُ يسقطُ أولًا».

***

حين ارتفعتِ الحبالُ

في ساحةٍ من الوهم،

تسلقَ أحدهم على صوتٍ مكسور،

زرعَ قدمه في صدرِ المعنى،

ثمّ نادى:

«أنا حارسُ القمم»،

بينما الأرضُ تنامُ

تحتَ ظلهِ المشقوق.

***

رأيتُ رجلاً

ينقِّي اسمه من الشك،

ثمّ يغمسُه في الحروفِ الثقيلة،

ليُضيءَ به عتمةَ الصدفة،

قال لي:

«لا تبحثْ عن الجوهر،

فالسُلالةُ تكفي لتبريرِ المدى».

***

وعند مفترقِ الصمت،

كانت شفتانِ تقولان كلَّ شيء،

لكنّ اللسانَ

كان يكتبُ شيئًا آخر

في دفترٍ من زجاج.

كأنّ الحقيقةَ

لا تحتاجُ إلى مصابيح

بل إلى من يراها

وهو يغمضُ عينَه.

***

وفي الزاويةِ العليا

من القصيدة،

كان بيتٌ صغيرٌ

يرتجفُ بلا عنوان،

لم يسكنهُ أحد،
لكنّ الجميعَ
أقسموا أنهم ورثوهُ
عن جدٍّ لم يُولدْ بعد.

تَراتيلُ الفَجْرِ المُؤَجَّلِ

حين أغمضَ الطفلُ عينيه، لم يهربْ من المشهد... كان يرى بعيني الروح ما لم تستطع العين احتمالَهُ من الفجيعة.

**

في المدينةِ التي كانت تُضيئُها الحكاياتُ قبلَ المَساءِ،
مرَّتْ جيوشُ الغُبارِ،
تَعْلُو صفيرَ الرَّصاصِ على تَرتيلِ الأُمَّهاتِ،
وتَسقُطُ النوافِذُ كأنَّها شَهَقاتُ بُيوتٍ مَذعورةٍ،
والأبوابُ تَصرُخُ: لا أَحَدَ في الدّاخلِ
غيرُ صَدى الأنفاسِ الأَخيرةِ.
رأى الطِّفلُ ظِلَّهُ يَهرُبُ مِنهُ،
يَتعلَّقُ بعباءةِ أُمِّهِ التي احترقَتْ في مُنتصفِ النِّداءِ،
رأى ألعابهُ التي كانتْ تَصحُو مَعَهُ كُلَّ صباحٍ،
تَتَحوَّلُ إلى نَثَارٍ لهُ رائحةُ اللَّوزِ المكسورِ.
سقَطَ في ذاكرتِهِ حَجَرٌ،
ثمَّ آخَرُ... ثمَّ آخَرُ...

حتّى صارَ الحُطامُ جَبَلًا يَنامُ عليهِ صَمتُهُ الطَّويلُ.

في الفوضى التي تُشبِهُ نَشيدًا مِن كَوابيسَ،

كانَ الجُنودُ يَعبُرونَ الشَّوارعَ كظِلالٍ بلا وُجوهٍ،

والسَّماءُ تَبتَلِعُ أَصواتَ الطُّفولةِ،

لِتَقفِزَها رَمادًا فوقَ خَرائطٍ تَمَزَّقَتْ في جُيوبِ القَتلى.

حَتّى العَصافيرُ، تِلكَ التي كانتْ تُعلِّمُ الرِّيحَ أَسماءَ الزَّهرِ،

حَلَّقَتْ بلا أَجنِحَةٍ...

كأَنَّها تُهاجِرُ مِنَ المَعنى إلى اللّاشَيءِ.

لكنَّ الطِّفلَ... لَمْ يَبكِ.

لَمْ يَسأَلْ أَحَدًا عنِ الغِيابِ،

كانَ يَخطُّ على الجِدارِ المَكسورِ دائِرَةً،

ثمَّ يَضَعُ فيها نُقطَةً،

ثمَّ يَرسُمُ مِنها شَمسًا،

ويَكتُبُ تَحتَها:

«سَتَعودُ الحَياةُ حينَ تَنامُ البَنادِقُ.»

تَسَلَّلَ الضَّوءُ مِن بَينِ الأَصابِعِ التي كانتْ تَرجُو،

ورَأى في المَدى نَهرًا يَشُقُّ الرَّمادَ كأَنَّهُ نُبوءَةٌ،

وقالَ في نَفسِهِ:

«كُلُّ هذا الخَرابِ دَرسٌ في مَعنى النُّهوضِ،

وكُلُّ صَرخَةٍ هيَ حَجَرٌ في جِدارِ الغَدِ.»

مَرَّتِ السُّنونُ على وجهِهِ الصَّغيرِ كجَرافَةٍ مِنَ الوَقتِ،

كَبِرَ الطِّفلُ...

صارَ يَحمِلُ في صَوتِهِ نَغمَةَ الَّذينَ سَقَطوا،

وفي عَينَيهِ خَريطَةُ المُدُنِ المُدَمَّاةِ،

وفي يَدِهِ قَلَمٌ مِن ضوءٍ،

يَرسُمُ بِهِ نَهارًا جَديدًا على جَسَدِ الظُّلْمَةِ.

ومِن بَينِ أَنقاضِ المَعنى،

انبَثَقَ لَحنٌ خافِتٌ... كأَنَّهُ صَلاةُ الأَرضِ حينَ تَستَعيدُ إيمانَها،

لَحنٌ يُوقِظُ في الصَّمتِ نَبضَ الينابيعِ،

ويَقولُ:

«يا أَرضُ، إنَّ الطُّفولَةَ باقِيَةٌ ما دامَ فينا

قَلبٌ واحِدٌ يَرفُضُ أَنْ يَموتَ.»

وهَكذا،

حينَ عادَ النُّورُ مِن مَنفاهُ،

كانتِ المدينةُ تُرمِّمُ وَجهَها مِن أَنينِها،
وكانَ الطِّفلُ – الذي صارَ رَجُلًا –
يَكتُبُ على جِدارِ المَدرَسَةِ الأُولى:
«مِنَ الرَّمادِ يُولَدُ النَّشيدُ.»

تَجَلٍّ مِن رَمادِ الذّات

عندما يَختارُ النّورُ أن يَسكُنَ في العَتمةِ، يَتَجلّى المَعنَى لا في ذاتٍ تُنقَذُ، بَل في ذاتٍ تُمحَى.

(١)

مِن جَسَدٍ يَنشَطِرُ بالوَجَعِ، سالَتْ صَرخَةٌ كالنّهرِ المَذعورِ،
تَتَلوّى في جَوفِ الرّيحِ، تَبحَثُ عن مَأوًى لا يَجيء.
الأرضُ تَنكمِشُ تَحتَ قَدَمَيها كجِلدٍ مُتَهالِك،
والسّماءُ تَصُدُّ صَوتَها بِبُرودَةٍ مِن حَجَر.
كَأنَّ الألَمَ يُفَتِّشُ عن جَسَدٍ أَكبَرَ ليُقيمَ فيه،
كَأنَّها لَيسَتِ امرَأَةً بَل كَونٌ يُسَلَّطُ علَيهِ حَدُّ المِقصَلَة.

(٢)

في المَمَرّاتِ المُعتِمَةِ، تَتَدَلّى الجُدرانُ كأَجسادٍ مَشنوقَة،
الرّائحَةُ مَقبرَةٌ تَتَنَفَّسُ في صُدورِ الأحيَاءِ،
والأرضُ تَبتَلِعُ خُطى مَن يَعبُرونَها كَهُوَّةٍ لا قَرارَ لها.
الأَسِرَّةُ تَصدَأ، والمَصابيحُ تَغرَقُ في غُبارِها،

والوَقتُ يَتَجمَّدُ علَى وُجوهٍ ذابِلَةٍ،
كَأنَّ المَكانَ حانوتٌ يَبيعُ المَوتَ بِالأقساط.

(٣)

هُناكَ، حَيثُ الحَدُّ بَينَ الفَناءِ والعَودَة،
تَسطَعُ يَدٌ لا تَعرِفُ التَّردُّد،
تَغرِسُ سِكّينًا صَدِئَةً في لَحمٍ يُصَلّي للنَّجاة.
تَفتَحُ الجَسَدَ ككِتابٍ لَم يَقرأهُ أَحَد،
وتَستَخرِجُ مِنهُ نَهرًا صَغيرًا يَتَقاذَفُ كطِفلٍ أفاقَ مِن غَيبوبَة.
اللّحظَةُ تَنقَلِبُ علَى نَفسِها،
وتُعيدُ كِتابَةَ الفَجرِ فَوقَ سُطورِ اللَّيلِ المُتَكَسِّرَة.

(٤)

أَجنِحَةٌ مِن زُجاجٍ ومَمَرّاتٌ بَيضاءُ كالنِّسيان،
وجُموعُ أَطبّاءٍ يُحيطونَ بِالمُعجِزَةِ ككَهنَةٍ مَذهولين.
كُلُّ واحِدٍ يَتَلَمَّسُ سِرًّا لَم يُفَسَّر،

وعُيونُهُم تَنعَكِسُ فيها دَهوشَةُ المِرآةِ أَمامَ وَجهٍ آخَر.
المَرأَةُ تَمشِي كظِلٍّ عَبرَ بَواباتِ الضَّوْء،
كَأَنَّها جُرِحَت لِتَكونَ شاهِدَةً علَى قِيامَةٍ لَم يَفهَمها أَحَد.

(٥)

البابُ العالِي يَنفتِحُ علَى خُطواتٍ هادِئَة،
وصَوتُ السُّلطانِ يَذوبُ في جُدرانٍ مُذَهَّبَة،
لا يَسأَلُ عن ثَمَنٍ ولا عن وِجهَة،
بَل عن سِرٍّ حَمَلَهُ رَجُلٌ لَم يُفَكِّر بِنَفسِه.
العُروشُ تَتَثاءَب، والتِّيجانُ تَبهَت،
أمامَ عَينَينِ لا تَلتَفِتانِ إلّا إلى البَعيد،
إلَى أَرضٍ أَكلَتها النُّدوبُ وتَرقُبُ قُبلَةً مِن حَياة.

(٦)

«تَمَنَّ»، قالوا،
كَأَنَّ العالَمَ صارَ صُندوقًا صَغيرًا يُفتَحُ بِكَلِمَة.
لكِنَّ عَينَيهِ عَبَرَت فَوقَ الذَّهَبِ كَمَن يَعبُرُ فَوقَ رَمادٍ لا يَعنيه،

ونَبضُهُ اتَّجَهَ إلَى جُموعٍ لَم تَسمَعِ اسمَه،
إلَى ألسِنَةٍ لَم تَهتِف لَهُ يَومًا.
لَم يَقُل «أُريد»، بَل هَمَسَ:
لِيَكُن بَيتٌ للجُرحى،
لِيَكُن مَأوًى للأنين،
لِيَكُن لِلآخَرينَ ما لا يَكونُ لي.

(٧)

فارتَفَعَتْ مِن التُّرابِ شَجَرَةٌ مِن حَجَرٍ ونَوافِذ،
تَفتَحُ أَغصانَها لِكُلِّ مُثقَلٍ بالوَجَع.
كُلُّ غُرفَةٍ جَمرٌ يُنيرُ الظَّلام،
كُلُّ مَمَرٍّ جِسرٌ يَعبُرُ فَوقَ المَوت،
كُلُّ سَريرٍ قَصيدَةٌ كُتِبَت بِدَمٍ لا بِاسْمٍ.
جِدارٌ بَعدَ جِدار، يَنهَضُ المَكانُ
كَأيقونَةٍ وُلِدَت مِن يَدٍ واحِدَةٍ
أَرادَت أَن تَذوبَ كَي يُقامَ لِلآخَرينَ وَطَنٌ في الشِّفاء.

(٨)

هَكَذا تَنطَفِئُ الذّاتُ لِتُضيءَ المَدَى،

وهَكَذا يَموتُ الاسمُ لِيُبعَثَ في ضَميرِ الجَمع.

الغايَةُ لا تُقاسُ بِما يُمسِكُ المَرءُ لِجيبِه،

بَل بِما يَترُكُهُ في العُيونِ الّتي لَم تَرَه.

هُناكَ، في صَمتٍ لا يَعرِفُ المَوكِبَ ولا الأناشيد،

يَتَحوَّلُ الإنسانُ إلى فِكرَة،

والفِكرَةُ إلى خُلودٍ لا يُكتَبُ علَى شاهِدٍ،

بَل يُتلى في كُلِّ صَرخَةٍ تُفتَحُ لَها أَبوابُ الحَياة.

حين يتصدّع الصرح وتتكلم الظلال

السرُّ ليس في الأجوبة، بل في الشقوق التي تنبتُ منها الأسئلة.

**

بهاء الصعود

تحت زُرقةٍ متخشّبةٍ من وهجٍ لا يرحم،
تمدّد الضوءُ كإمبراطوريةٍ من مرايا،
وتحوّل الزمنُ إلى سُلّمٍ يُزفُّ فيه الدخانُ
بأكاليلٍ من أرقامٍ لا تُخطئ.
كانت الأحجارُ تُسبّحُ لأسماءٍ جديدة،
والفضاءُ يحنو على حديدٍ يعلو فوق نفسه،
حتى صار المجدُ أفقًا يتكرّر في كل نافذة،
وصار البشرُ أشباحًا
يصفّقون لظلٍّ يصفّق لنفسه.
لم يكن هناك موت،
كان كل شيءٍ يتنفّسُ خلودًا مصنوعًا،

كأن الحقيقةَ تخلّت عن حقيقتها،

واستعارت قناعًا من بلّور.

الانكسار

لكن الصمتَ ألقى حجراً في البئر،

فتشظّتْ صورُ الصور،

وتحوّل اللمعانُ إلى ندبةٍ في قلب المرآة.

السماءُ، تلك الشاهدةُ البعيدة،

انحنت فجأةً،

وانكسرتْ على ركبتين من فراغ.

بين الجدران العالية،

لم يبقَ سوى ارتجافٍ يفتّش عن مخرج،

وسرابٍ يضحكُ من عطشٍ يظنّ نفسه نبعًا.

هكذا صار العلوُّ سردابًا،

وصارت الأناشيدُ مراسيمَ عزاءٍ،

وصارت الأرواحُ تتعثرُ بخطواتها،

كأنها لا تعرف الطريق إلى جسدها.

عجز الكهنة

تجمّعوا حول الطاولةِ التي بلا طعام،
ألقوا مفاتيحَهم في هواءٍ لا يفتحُ شيئًا،
وانحنوا على نصوصٍ غارقةٍ بالحبر،
لكن الحروفَ كانتَ تنقضُّ عليهم
كوحشٍ يعرفُ أصلَه.
كلُّ فمٍ صار بئرًا،
وكلُّ عقلٍ صار متاهةً تحفر متاهةً أخرى.
لم تعد النارُ تعرف فتيلها،
ولا الطبولُ تعرف صداها،
حتى الكلماتُ، تلك التي وُلدت لتكون سيوفًا،
ارتدتْ كالأطفال إلى صمتٍ مرتجف.
كانوا يرفعون خرائطَهم نحو السماء،
لكن الغيمَ كان يمحوها بإصبعٍ من ريح،
ويضحكُ.

سقوط الإله المصنوع

في المركز،

حيث لا فرق بين قصرٍ وقبر،

جلسَ على عرشٍ يتهدّم،

ينظر في مراياهِ التي تسخر من صورته.

التيجانُ بدتْ أثقل من الرأس،

والذهبُ صارَ صخرةً تُسحقُ تحتها الأحلام.

ارتجف الكبرياءُ كطائرٍ أصابه سهمُ فراغ،

وبكى الضوءُ في زاويةٍ لا تُرى.

لم يجد غيرَ جدارٍ من رمادٍ،

ولا غيرَ أفقٍ يبتسمُ بأسنانٍ من حديد.

كان سقوطًا بلا سقوط،

كأن الذاتَ أكلت ذاتها،

وكأن العرشَ يعترفُ أن العرشَ لم يكن.

**

كلمة من الطين

من العراءِ الذي لا تُسمّيه الخرائط،

من هامشٍ أعمى في كتابٍ ممحوّ،
نهض صوتٌ بملابسٍ من غبار،
قال ما لم تقله الكتب،
وألقى في فراغهم بذرةَ ماء.
لم يكن اسمًا، ولا صورة، ولا تاريخًا،
كان ارتجافةً في جسد الأرض،
كان طينًا يستيقظُ من سباته،
ويُذكّرُ المرايا
أنها ليست سوى شظايا من الرمل.
حين نطق،
ارتجف المعبدُ العالي،
وسقطتْ الأعمدةُ من داخلها،
كأن السرَّ ليس في البناء،
بل في العينِ التي ترى البناء.

**

التفجّر الصوفي

لم تكن النهايةُ نهاية،
بل انفتاحًا على صمتٍ أكبر،
حيث تتساقطُ الأبوابُ من جدرانها
وتخرجُ الطرقُ من أحشائها
كالأفاعي من جلدٍ قديم.
كلُّ سقوطٍ، عروجٌ إلى هاويةٍ أخرى،
وكلُّ هاويةٍ، سلّمٌ مقلوبٌ إلى سماءٍ لا تُسمّى.
من يظن أن الدائرةَ تنغلق،
لا يرى الشرارةَ التي تنبثق من مركزها،
ولا يسمعُ الأغنيةَ التي تعزفها الشقوق.
إنّ الحكايةَ لا تُروى،
إنها تستيقظُ فينا كوميضٍ يرفضُ الانطفاء،
كأفقٍ يبتكرُ أفقًا،
كصدى يلدُ صدى،
كشمسٍ لم تتعب من الشروق،
حتى لو أحرقتْ نفسها مرارًا.

وهكذا...

يبقى البابُ مفتوحًا

على مصراعين

نحو الفراغ،

نحو الامتلاء،

نحو ما لا اسمَ له...

ونحو ما لم يبدأ بعد.

مَزاميرُ على تَعاريجِ المَنْفَى

إلى أَنورِ الشِّعر

لَيْسَ سَيْرُهُ في المَنْفَى سِوَى عُبُورٍ في مَمَرّاتٍ مِنْ زُجاجٍ مَشْروخٍ، يُرَى فيهِ اِنْعِكاسُهُ يَتَشَظّى كُلَّما اِقْتَرَبَ مِنَ الحُلْمِ. وَلَيْسَ قَلَمُهُ سِوَى عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْها وَهُوَ يَقْطَعُ صَحْراءً مِنَ المِلْحِ وَالدَّمْعِ. هكَذا تَتَشَكَّلُ سيرَتُهُ في مَرايا مُتَكَسِّرَةٍ، وَهكَذا اِتَّخَذَ مِنَ الذّاكِرَةِ مَأْوًى، وَمِنَ الرَّمادِ أَجْنِحَةً، وَمِنَ الظِّلالِ مَصابيحَ، كَيْ يَكْتُبَ تاريخَهُ الَّذي هُوَ تاريخُ جيلٍ كامِلٍ.

***

في البَدْءِ

كانَ صَرْخَةً عَلِقَتْ بَيْنَ أَهْدابِ الخِيامِ،

طِفْلًا يَرْضَعُ مِنْ ثَدْيِ الغُبارِ

وَيَتَمَرَّغُ في تُرابٍ فَقَدَ دِفْءَ البُيوتِ.

لَمْ يَعْرِفْ مِنَ الأَرْضِ سِوَى ظِلِّها،

وَلا مِنَ الأُمِّ سِوَى دَمْعَتِها،

وَلا مِنَ الأَبِ سِوَى يَدَيْهِ وَهُما يُخَبِّئانِ المَفاتيحَ

كَتَمائِمَ ضِدَّ النِّسْيانِ.

كَبِرَ،

وَكانَتِ المَدْرَسَةُ خَيْمَةً أُخْرَى،
لَكِنَّها تَفْتَحُ نَوافِذَها عَلى قَناديلَ مِنْ حُروفٍ،
تُعَلِّمُهُ أَنْ يَسْتَعيضَ عَنْ غِيابِ الشَّمْسِ
بِضَوْءِ فانوسٍ،
وَأَنْ يَكْتُبَ عَلى الطَّباشيرِ
اِسْمَ وَطَنٍ مَمْنُوعٍ مِنَ النُّطْقِ.
ثُمَّ جاءَتِ اللَّيالِي،
طَويلَةً كَأَصْفادِ الحَديدِ،
كانَ يَحْفِرُ الأَلْعابَ مِنْ أَسْلاكٍ مَسْروقَةٍ،
يَصْنَعُ مِنَ الخَريطَةِ لُعْبَةً،
وَمِنَ الخَرابِ مَلْعَبًا،
وَيَضْحَكُ كَيْ لا يَبْتَلِعَهُ الصَّمْتُ.
هُناكَ أَدْرَكَ أَنَّ الطُّفولَةَ لَيْسَتْ عُمْرًا،
بَلْ جُرْحًا يَتَنَكَّرُ في هَيْئَةِ اِبْتِسامَةٍ.
وَعِنْدَما شَبَّ،
صارَتِ المَنافِي حُقولًا مِنْ شَوْكٍ،
كُلُّ خُطْوَةٍ تَلِدُ جُرْحًا،

وَكُلُّ جُرْحٍ يُنْبِتُ كِتابًا.
تَعَلَّمَ أَنَّ المَنْفَى لَيْسَ مَكانًا،
بَلْ مِرْآةٌ تَضَعُهُ وَجْهًا لِوَجْهٍ
أَمامَ هَشاشَتِهِ،
فَيَبْنِي مِنَ الحَرْفِ قِلاعًا،
وَيَحْتَمِي بِالقَصيدَةِ مِنْ سَكاكينِ الرِّيحِ.
وَفي عَتَماتٍ أُخْرَى،
حينَ صارَ الفِكْرُ مَنْفًى أَشَدَّ مِنَ الأَرْضِ،
وَحينَ صارَتِ الكَلِمَةُ خَنْدَقًا،
عَرَفَ أَنَّهُ يَحْمِلُ عَلى كَتِفَيْهِ
حِكايَةَ جيلٍ كامِلٍ،
يَمْشي حُفاةً في أَسْواقِ العالَمِ،
وَيَصْرُخُ: «لَسْنا يَتامَى،
لَكِنَّ اللِّئامَ أَوْسَعُوا لَنا المائِدَةَ».
وَها هُوَ،
كُلَّما مَشَى في تَعاريجِ المَنْفَى،
اِزْدادَ يَقينًا أَنَّ الطَّريقَ

هُوَ قَصيدَةٌ مَفْتوحَةٌ عَلى المَدَى،
قَصيدَةٌ لا تَنْتَهِي بِالوُصولِ،
وَلا تَنْكَسِرُ بِالخَيْبَةِ،
قَصيدَةٌ لا تَقولُ: اِنْتَهَيْتُ،
بَلْ تَظَلُّ تَكْتُبُهُ
كَما تَكْتُبُ الرِّيحُ عَلى الرَّمْلِ
تاريخَ الَّذينَ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ تاريخٌ.

***

أَيُّهَا المَنْفَى،
أَيُّهَا المُعَلِّمُ القاسِي،
لَقَدْ حَفَرْتَ في جَسَدِهِ تَجاعيدَكَ،
لَكِنَّهُ صارَ يَعْرِفُ أَنَّ الأَلَمَ
لَيْسَ سِوَى حِبْرٍ آخَرَ.
كُلُّ صَرْخَةٍ صادَرْتَها مِنْ صَدْرِهِ
أَزْهَرَتْ كِتابًا،
وَكُلُّ دَمْعَةٍ اِنْتَزَعْتَها مِنْ عَيْنَيْهِ
أَشْعَلَتْ فانوسًا في دَرْبٍ آخَرَ.

إِنَّهُ الشّاهِدُ

عَلى مَوْتٍ يَتَنكَّرُ في هَيْئَةِ حَياةٍ،

وَعَلى حَياةٍ لا تَنامُ إِلّا عَلى وِسادَةِ الحُلْمِ.

وَهُوَ الصَّوْتُ

الَّذي يَعْبُرُ مِنْ فَمِ جيلٍ كامِلٍ،

جيلًا حَمَلَ مَفاتيحَهُ في جُيوبِهِ

وَتَرَكَ أَبْوابَهُ مُشْرَعَةً لِلْغِيابِ.

وَهكَذا،

تَظَلُّ سيرَتُهُ تَعاريجَ،

لَكِنَّها تَعاريجُ تَنْبُتُ عَلى جِدارِ الغُرْبَةِ

مَزاميرَ،

تَقولُ لِلأَرْضِ البَعيدَةِ:

ما زالَ في القَلْبِ وَطَنٌ،

وَما زالَ في اليَدِ قَلَمٌ.

ظِلالٌ تَمْشي في مَرايا الذّاكرة

إلى وَلِيدِ سَيْف

لَيْسَ السَّرْدُ تاريخًا هُنا، بَلِ ارْتِحالُ طَيْفٍ يَتَهَجّى وُجوهَهُ في مَرايا الغِياب. وَلِيدُ سَيْفٍ لَيْسَ اسْمًا فَحَسْبُ، بَلْ قِنْدِيلٌ يَذوبُ في حِبْرِهِ، وَيَنْهَضُ مِنْ غُبارِ الطُّفولَةِ كَأَنَّهُ كِتابٌ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ أَيْدي الأَزْمِنَةِ. هذِهِ القَصيدَةُ لَيْسَتْ حِكايَةً تُرْوى، بَلْ أَطْيافًا تُحْتَضَرُ وَتُولَدُ مَعًا، كَيْ تَصيرَ حَياةُ الشّاعِرِ مَرْثِيَّةً لِأَمْكِنَةٍ لا تَموتُ، وَأَناشيدَ لِمَصائِرَ تَبْحَثُ عَنْ يَقينِها في الرِّيحِ.

**

في البَدْءِ

كانَ صَدًى يَتَهَجّى حُروفًا يابِسَةً

بَيْنَ قَشِّ القَرْيَةِ،

وَسُحُبٍ تَنامُ عَلى التِّلالِ.

هُناكَ،

حَيْثُ الفَقْرُ يَزْرَعُ خُبْزَهُ في الطّينِ،

وَيُطْعِمُ الصِّغارَ قَصائِدَ مِنْ مِلْحٍ،

وَيَسْقي العِطاشَى مِنْ جَرَّةٍ مَثْقوبَةٍ.

كانَ الوَليدُ

طِفْلًا يَفْتِّشُ عَنْ نافِذَةٍ في العَتْمَةِ،

يَرْسِمُها بِالعَصافيرِ عَلى جُدْرانٍ طينِيَّةٍ،

وَيَكْتُبُ بِالتُّرابِ:

أَنَّ الوَطَنَ ظِلٌّ لا يُمْسِكُهُ سِوَى الذّاكرةِ.

**

ثُمَّ اِنْفَتَحَتْ أَبْوابُ الغُرْبَةِ.

بَوّابَةُ ياسَمينٍ[1] تُهَرَّبُ عَبْرَ اللَّيْلِ،

وَفي كُلِّ حَجَرٍ، مِئْذَنَةٌ تُصَلِّي

عَلى أَرْواحٍ تَكَسَّرَتْ في الطُّرُقاتِ.

هُناكَ،

حَمَلَ الوَليدُ وُجوهَ قَرْيَتِهِ في حَقيبَةٍ مِنْ وَرَقٍ،

وَسارَ عَلى جِسْرٍ مائِيٍّ

يُفْضي إِلى جُرْحٍ أَوْسَعَ مِنَ البَحْرِ.

الكُتُبُ الَّتي اِلْتَهَمَتْهُ

لَمْ تَكُنْ حُروفًا جامِدَةً،

(١) دمشق

بَلْ مَرايا تَتَكَسَّرُ في داخِلِهِ،

فَإِذا بِالأَسْئِلَةِ

تُصْبِحُ طُيورًا سَوْداءَ

تَنْعِقُ فَوْقَ رَأْسِهِ.

***

وَحينَ دَخَلَ حِضْنَ الحِجارَةِ العَتيقَةِ[1]،

كانَ كَمَنْ يَخْطو إِلى المِرْآةِ.

شَوارِعُها لُغْزٌ مِنْ غُبارٍ وَحُروفٍ ضائِعَةٍ،

لَكِنَّهُ مَدَّ يَدَهُ

فَأَضاءَ الحُروفَ بِالدَّمْعِ،

وَنَقَشَ عَلى بَوّاباتِها:

أَنَّ المَسْرَحَ يُولَدُ مِنَ الرَّمادِ،

وَأَنَّ الصَّوْتَ

أَقْوى مِنْ سُيوفِ الغُزاةِ.

كَتَبَ وُجوهَ النّاسِ عَلى الخَشَبَةِ،

فَصارَتْ أَسْماؤُهُمْ نارًا،

(١) مدينة عمّان

وَصاروا يَمْشونَ

كَأَنَّهُمُ التّاريخُ وَقَدِ اِنْبَعَثَ ثانِيَةً.

***

وَعَبْرَ شُرْفَةِ المُتَوَسِّطِ المُضَرَّجَةِ[1]،

كانَ يَسْمَعُ القَصيدَةَ

كَأَنَّها بُكاءُ مَدينَةٍ تَحْتَ القَصْفِ.

حَيْثُ الدَّمُ يَقْطُرُ مِنَ النَّوافِذِ،

كانَ يَلْتَقِطُ القَصيدَةَ

كَمنْ يَلْتَقِطُ رَصاصَةً ضائِعَةً.

هُنالِكَ،

لَمْ يَعُدِ الشِّعْرُ نَشيدًا،

بَلْ صَرْخَةً في لَيْلٍ لا يَسْمَعُ أَحَدًا.

كَتَبَ فِلَسْطينَ

كَأَنَّهُ يَكْتُبُ عَلى جُدْرانِ قَلْبِهِ،

وَزَرَعَ في القَصيدَةِ

أَجْسادَ الشُّهَداءِ،

(١) بيروت

لِتَنْهَضَ مِنْها أَشْجارٌ
تَحْمِلُ أَسْماءً بِلا قُبورٍ.

***

وَفِي الشّاشَةِ الَّتي تَشْتَعِلُ بِالحِكايَةِ[1]،
أَطَلَّ كَمَنْ يَنْسُجُ لِلنّاسِ مَلْحَمَةً،
يَرْويها بِدَمْعٍ خَفِيٍّ.
صَلاحُ الدِّينِ خَرَجَ مِنْ ظَلامِ القُرونِ،
وَأَبو جَعْفَرٍ
أَطَلَّ مِنْ صَحْراءٍ تَشْتَعِلُ بِالرِّماحِ.
لَمْ يَكُنْ تَمْثيلًا،
بَلْ إِعادَةَ كِتابَةٍ بِالدَّمْعِ،
كَأَنَّ الشّاشَةَ
ساحَةٌ أُخْرى مِنْ مَعارِكِ الهُوِيَّةِ.
كُلُّ مَشْهَدٍ كانَ نافِذَةً
عَلى ذاكِرَةٍ لا تَكْتَفي بِالذِّكْرى،
بَلْ تَنْزِفُ حَتّى تَصيرَ حاضِرًا.

***

(١) مؤسسة الإذاعة والتلفزيون

عَلى أَجْنِحَةِ الصَّوْتِ،
كانَ يَمْشي عَلى حافَةِ الظِّلِّ،
يَكْتُبُ عَنِ الغِيابِ كَأَنَّهُ وَطَنٌ،
وَعَنِ الوَطَنِ كَأَنَّهُ غِيابٌ.
المَجازُ بَيْتُهُ،
وَالرَّمْزُ غُصْنُهُ،
وَكانَ يَرى أَنَّ الكَلِمَةَ
لَيْسَتْ رَصيفًا لِلرّاحَةِ،
بَلْ هاوِيَةً،
مَنْ يَقِفُ عَلَيْها يَرى الأَرْضَ تَتَشَظّى
وَتَلِدُ سَماءً أُخْرَى.

***

في بُسْتانِ الحِكايَةِ،
كانَ أَبًا يَسْقي أَبْناءَهُ حُروفًا
مِنْ ماءٍ وَأَمَلٍ،
وَيُعَلِّمُهُمْ
أَنَّ الشّاعِرَ لَيْسَ مَنْ يَكْتُبُ القَصيدَةَ،

بَلْ مَنْ يَسْكُنُها،

وَيَذوبُ فيها،

حَتّى يَصيرَ جَسَدًا مِنْ كَلِماتٍ.

***

الآنَ،

ها هُوَ الطَّيْفُ يَمْشي بِلا ظِلٍّ،

كَأَنَّهُ يَتَلَمَّسُ وُجوهَنا

في مَرايا الحاضِرِ.

لَمْ يَمُتْ،

وَلَمْ يَبْقَ،

هُوَ بَيْنَ بَيْنَ،

بابٌ يُفْتَحُ عَلى بابٍ،

وَصَوْتٌ يَذوبُ في أَصْواتٍ لا تُحْصى.

قَدْ يَكونُ سُؤالًا،

قَدْ يَكونُ نَجْمًا،

وَقَدْ يَكونُ مُجَرَّدَ أَثَرٍ

عَلى جِدارٍ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.

مَائدةُ الغَيْمِ الأَخِيرَة

بمناسبة اليوم العالمي للصداقة ٣٠ تموز

***

فِي مَهَبِّ نَجْمٍ تَعَثَّرَ بالخُطى،
نَصَبَتِ الأَكْوانُ مَائِدَةً مِنَ الغَيْمِ،
تَجَمَّعَتْ حَوْلَهَا الأَزْمِنَةُ فِي هَيْئَةِ وُجُوهٍ
مُخْتَلِفَةِ المَلامِحِ،
تَتَبَادَلُ الأَقْدَاحَ
كَأَنَّ الرَّشْفَ تَعْمِيدٌ ثَالِثٌ بَعْدَ المَاءِ وَالنَّارِ.
عَزَفَتِ القَوَافِلُ البَعِيدَةُ أَنْغَامًا
مِنْ أَوْتَارِ الغُبَارِ،
وَسَارَتِ الأَقْدَامُ الحَافِيَةُ عَلَى نَصْلِ الدَّهْشَةِ،
كُلُّ يَدٍ كَانَتْ تُصَافِحُ ظِلًّا
وَتُخَبِّئُ جَمْرَةً فِي رَاحَةِ المَعْنَى.
عَلَى حَوَافِّ الطُّقُوسِ القَدِيمَةِ،

نَقَشَتِ الأَرْوَاحُ شَارَاتٍ مِنْ قَمْحٍ،
وَمَلَأَتْ جِرَارَهَا بِنَدَى الفُصُولِ،
وَكَانَتْ تُهْدِي كُلَّ مَوْسِمٍ
مَفَاتِيحَ الأَبْوَابِ المُغْلَقَةِ
فِي مُدُنٍ بَنَتْ جُدْرَانَهَا مِنَ الشَّكِّ وَالِانْتِظَارِ.
هُنَاكَ، حَيْثُ تَشْهَقُ الأَرْضُ بِلُغَةٍ
لَا تُدْرَكُ إِلَّا فِي لَحْظَةِ العِنَاقِ،
كَانَ الغُرَبَاءُ
يَسْتَدِلُّونَ عَلَى بُوصَلَةِ أَرْوَاحِهِم
بِإِشَارَاتٍ صَامِتَةٍ،
تُشْبِهُ رَقْصَةَ شَجَرٍ يَبْتَسِمُ لَهُ النَّسِيمُ،
أَوِ التِفَاتَةَ طِفْلٍ رَأَى قَوْسَ قُزَحٍ
فَغَنَّى لَهُ بِأَلْوَانٍ لَا تُرَى.
فِي الغَابَةِ الَّتِي عَلَّقَتْ جُذُورَهَا
عَلَى أَغْصَانِ الغَيْمِ،
تَسَامَرَتِ الطُّيُورُ

بِلُغَاتٍ لَا تَنْتَمِي إِلَّا لِلدِّفْءِ،
فَفَهِمَتْهَا أَعْشَاشٌ لَمْ تَلْتَقِ مِنْ قَبْلُ،
وَرَقَصَتْ أَوْرَاقٌ خَضْرَاءُ
مَعَ أَغْصَانٍ شَاخَتْ مِنَ التَّعَبِ،
كَأَنَّ الزَّمَنَ عَادَ لِيُقَايِضَ الخَرِيفَ بِقُبْلَةٍ مِنَ النَّدَى.
كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يُعِيدُ تَأْوِيلَهُ
فِنْجَانٌ وَاحِدٌ
تَتَقَاسَمُهُ قَارَّاتٌ
نَسِيَتْ أَسْمَاءَهَا
وَلَكِنَّهَا تَذَكَّرَتْ طَعْمَ الضَّوْءِ حِينَ يُسْكَبُ
مِنْ عَيْنٍ تَفِي
مَرَّتْ مَوَاكِبُ مِنَ الدُّفُوفِ
تَحْمِلُ وُجُوهًا بِأَلْوَانِ الطِّينِ،
أَصْوَاتًا تُشْبِهُ المَآذِنَ حِينَ تَتَصَافَحُ
مَعَ أَجْرَاسِ الكَنَائِسِ،
وَخُطُوَاتٍ كَأَنَّهَا تَعْزِفُ عَلَى نَايٍ وَاحِدٍ

نُسِجَ مِنْ أَعْصَابِ المَطَرِ.

لَا أَحَدَ سَأَلَ الآخَرَ: «مَنْ أَنْتَ؟»

لِأَنَّ السُّؤَالَ، هُنَاكَ،

كَانَ نُقْصَانًا فِي طَقْسِ الاكْتِمَالِ.

فِي الكَهْفِ المَنْحُوتِ عَلَى صَفْحَةِ الرِّيحِ،

تَرَكُوا إِشَارَاتٍ

مِنْ دُخَانٍ وَلُغَةٍ خَفِيَّةٍ،

كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ:

نَلْتَقِي حِينَ يَفْهَمُ الحَجَرُ صَمْتَ المَاء.

ثُمَّ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي خَجِلَتْ فِيهَا الشَّمْسُ

مِنِ اتِّسَاعِ الظِّلَالِ،

تَفَرَّقُوا كَأُغْنِيَاتٍ

لَمْ تُكْتَبْ بَعْدُ،

وَبَقِيَتِ المَائِدَةُ عَامِرَةً

بِأَثَرِ الخُطَى،

كَأَنَّهُمْ مَا جَاءُوا لِيَأْكُلُوا،

بَلْ لِيَتْرُكُوا وَصِيَّةً

مَضْغُوطَةً

فِي رَغِيفٍ

يَكْفِي أَنْ تَقْرَأَهُ لِتَعْرِفَ:

هَلْ كُنْتَ عَلَى مَائِدَةِ الغَيْمِ،

أَمْ كُنْتَ الغَيْمَ ذَاتَهُ؟

وِشَاحُ العُوَيْسِ عَلَى كَتِفِ الضَّوْءِ

قصيدة تهنئة للشاعر حميد سعيد بمناسبة فوزه بجائزة العويس

***

في المنفى الذي اختارَهُ القلبُ،
لا سوطُ منفًى ساقَهُ،
بل نبوءةُ شاعرٍ رأى في الغيابِ خلاصًا من العاصفة.
جلس «أبو بادية» في مقهى فوانيس،
يُسامرُ ظلَّهُ وشيئًا من نورهِ،
يجيءُ من أعماقِ الذاكرةِ،
يحملُ قنديلًا من حنينٍ،
ويقولُ: «ما الكتابةُ إلّا صلاةُ مَنْ لم يجدْ معبدًا».
كان القمرُ على كتفِ عمّانَ،
يُصغي إلى نغمةٍ رافدينيةٍ تخرجُ من فنجانِ قهوةٍ مُرّة،
والحروفُ تدورُ حولَ الشاعرِ
كما تدورُ الكواكبُ حولَ فكرةٍ خالدة،
تسألُهُ: أأخطأتَ حين غادرتَ؟

فيهمسُ: «هي خطيئتي التي أنقذتْ روحي من الموت».

يا سيّدَ الغربةِ المختارة،

يا مَنْ جعلَ من الوحدةِ وطنًا،

ومن الحوارِ مع الذاتِ ملحمةً،

ومن السؤالِ فلسفةً تُضيءُ عتماتِ العالم،

ها أنتَ تُعلّمُ المقاهي أن تُصغي،

والأباريقَ أن تتكلّمَ لغةَ الشعرِ،

والوقتَ أن يتباطأَ في حضرتكَ

كأنَّهُ يحتمي من حدّةِ الفناء.

تتذكّرُ – في لحظاتِ المؤانسةِ –

أنَّ بغدادَ ما زالتْ تكتبُ رسائلَها على الغيم،

وأنَّ تمّوزَ يعودُ كلَّ عامٍ من تحتِ الطينِ

ليقولَ إنَّ الحرفَ العراقيَّ لا يموت.

تتذكّرُ السيّابَ وهو يشيرُ إلى «الهوةِ المظلمة»،

وتستعيدُ خُطى المتنبيِّ

حينَ نعى «خولة» بدمعٍ من الفخرِ والحسرة.

تُحادثُ كونديرا عن الحبِّ في زمنِ الدبّابات،

وتضحكُ من ضابطٍ أرادَ أن يُعلّمَ شعبًا العشقَ

بلغةِ الرصاص!

يا حميدُ،

يا من جعلتَ من الكلمةِ سلاحًا أبيضَ لا يجرحُ،

ومن القصيدةِ نافذةً تُطلُّ على إنسانيةٍ أوسعَ من المنافي،

ها هي جائزةُ العويس

تجيءُ إليكَ كما تجيءُ النبوءةُ إلى نبيٍّ تعبَ من الصبر،

تجيءُ لا تكريمًا فحسب،

بل اعترافًا من الشعراءِ

أنَّكَ ما زلتَ تُنقذُ اللغةَ من موتِها البطيء،

وتوقظُ الحلمَ في ليلِ الكلمات.

جاءتكَ الجائزةُ

كما تأتي سحابةٌ إلى نخلةٍ تعرفُ سرَّ المطر،

كما تأتي الوردةُ إلى اسمِها،

والوطنُ إلى ابنِه الذي لم يخنهُ في الغياب.

يا ابنَ سومرَ،

يا من تعيدُ للأنهارِ أناشيدَها،

وللبياضِ معناهُ،
ها أنتَ تُكلَّلُ بتاجِ الشعرِ،
كأنَّ العويسَ جسرٌ بين وطنٍ موجوعٍ
وغربةٍ صارتْ وِردًا في دفترك.
فامضِ أيّها الشاعرُ الكبير،
وفي يدِكَ فوانيسُ عمّان،
وفي الأخرى نخلةُ بغداد،
وامضِ...
فكلُّ الجوائزِ بعدكَ
قصيدةٌ لم تكتمل

مِعْمَارُ الضَّوْءِ

في ليل الإنسان الطويل، يولد بعضهم من الطين لا ليعيشوا، بل ليخلّدوا ما يبنيه الضوء بأيديهم المتعبة. إنهم الذين ينسحبون من وهج الحياة ليصير الوهج ذاته امتداد أرواحهم.

***

في ليلِ الإنسانِ الطويلْ،
تولدُ من طينِ الأسى خطواتٌ تُنادي الفجرْ،
وتُعلِّقُ في جبهةِ الغيمِ سُلَّمَها الحجريَّ
لتصعدَ روحٌ،
ولا تصعدَ القدمُ المثقلةْ.
تحتَ شقوقِ الأرضِ،
ينبتُ من عرقِ الأيدي معنى الخلودْ،
ويُهندسُ الغيابَ
كما يُهندسُ البنّاءُ وجهَ النهارْ،
ثمَّ يمضي،
كأنَّ الظلالَ امتدادٌ لكتفيهِ،
وكأنَّ الضوءَ تلميذٌ منسيٌّ في كفّيهِ.

هوَ من يرمِّمُ في الآخرينَ صدوعَهُ،
ويَتركُ في كلِّ جدارٍ أنفاسَهُ الأخيرةْ،
ويمضي إلى عتمةٍ أخرى،
ليُشعلَ فيها مصابيحَ الوجودْ.
تغفو الحجارةُ على نَفَسِهِ،
وتحلمُ أن تُصبحَ بيتًا،
وحينَ يصحو،
تُصبحُ البيوتُ أناشيدَ ترثيهِ،
ولا تعرفُ أنَّهُ السطرُ الأوّلُ في نصِّ الخلقْ.

***

في البدء،
كان الصمتُ يخطُّ جدارَ الوجود،
وكانت الرياحُ تُجرِّبُ أصواتَها بين الحصى والتراب.
من رحمِ الغبارِ
خرجَ رجلٌ
يحملُ على كتفيهِ فكرةَ النهار،
وفي عينيهِ نذرُ الفجرِ حين يتردّدُ في المجيء.

كان يلوِّن العدمَ بملحِ عرقه،

ويمحو أثرَ الخطايا عن وجهِ الطين،

ويعيد ترتيبَ الفوضى

كي تستريحَ الحجارةُ في أماكنها،

ويستقيمَ ظلُّ الإنسان.

كان يعلّمُ الأشياءَ كيفَ تقف،

كيفَ تتنفسُ بعد الصدأ،

كيفَ تبتسمُ للريحِ دونَ أن تتهاوى.

لم يكن يعرفُ الكتابةَ،

لكنّ كفَّيهِ كانتا تقرآنِ لغةَ الخلودِ.

كلُّما اتّسعت السماءُ

ضاق جسده،

وكلَّما اشتعلَ الضوءُ في أعماقه

تساقطت منهُ المفاصلُ كالعصافير.

ومع ذلك،

ظلَّ يبني

يبني

يبني
كأنَّ الكونَ لا يكتملُ
إلّا حينَ يضعُ آخرَ حجرٍ في مكانهِ من الضوء.
كان الليلُ يمرُّ فوقه
كإزميلٍ من ظلال،
يفتحُ في روحهِ فجواتٍ من الشوق،
لكنّهُ لا يئنّ.
فقد تعلّم أنَّ الألمَ لا يُرمَّمُ بالشكوى
بل بالحبّ.
وعندما تعبَ،
جلسَ تحتَ جدارٍ لم يكتمل،
أضاء سيجارةً من رمادِ نهاره،
وقال للريح:
«كُلُّ ما لم يُبنَ بالحبِّ،
سينهارُ بالصمتِ».
في داخله،
طفلٌ من طينٍ زليٍّ،

يبحثُ عن اسمه في المرايا،
ولا يجد سوى وجهٍ غسله المطر،
وجهٍ لا يُشبهُ أحدًا،
لكنه يشبهُ الجميع.
كان يظنُّ أنَّ الضوءَ يأتي خارجِهِ،
حتى اكتشف أنَّهُ يولدُ
من الجهةِ التي يُخفيها الليل.
كلُّما التفتَ،
رأى ظلالاً تمشي خلفه،
هي امتدادُ من أحبَّ
وواصلَ البناءَ في صمت.
في صوتهِ بقايا صلواتٍ حجرية،
وفي كفّيهِ وطنٌ صغير
من الغبارِ والحلمِ والعزلة.
كلُّ خطوةٍ يخطوها
تُضيفُ إلى الأرضِ نبضًا للخلود.
وكلُّ نفسٍ يطلقهُ

يُنبتُ جدارًا جديدًا

في فضاءِ الروح.

كم من رجلٍ كهذا،

يعبرُ بيننا،

ولا نراه،

لأنَّه لا يرفعُ رأسهُ كي نلتفت إليه،

بل يرفعُ العالمَ كلّهُ على كتفيه.

وكم من نداءٍ

يخرجُ من الحصى،

من صوتِ المطرقةِ على الصخر،

من تنهيدةٍ تختبئ في الجدارِ الصامتِ،

ولا يسمعه أحد.

لكنّ السماءَ تسمع.

والأرضُ تحفظ.

والأجيالُ تمشي على جدرانه،

ولا تدري أنّ خطواتها

هي امتدادُ أنفاسه.

في آخر المساء،

حين يتعبُ الضوءُ من المشي،

ويُطفئُ النهارُ مصابيحَه،

سيجيءُ هو،

ببدلةٍ من الغبار،

ليُكمِلَ النقصَ في الجدارِ الأخير،

ثم يجلسَ،

ويبتسمَ كمن أنهى خُطبةَ الحياة.

***

وفي البعيد...

جدارٌ لم يُكتمل بعد،

وصوتُ مطرقةٍ يتردّدُ في الأفق،

يُقال إنَّها ليست صوتَ عملٍ،

بل نشيدَ حبٍّ

يبنيهِ من ظلِّه

لِمَنْ سيحملُ الحلمَ بعدَه...

هُوَامِشُ الحُرّيّةِ عَلَى جِدارِ المَعْنى

لَيْسَ الطَّرِيقُ ما نَراهُ، بَلْ ما يَخْتَبِرُنا وَنَحْنُ نَمشيه. وَالفِكرَةُ حِين تُسأَلُ، تُنقِذُ صاحِبَها مِنَ الإِجابَةِ.

**

أَدخُلُ هذَا النَّصَّ

لا كَما يَدخُلُ العارِفُ إِلى يَقِينِهِ،

بَلْ كَما يَتَسَلَّلُ الشَّكُّ

إِلى فِكرَةٍ تَعِبَتْ مِنَ الطّمأَنينةِ.

لا أَحمِلُ سُؤالًا واحِدًا،

بَلْ اِرْتِباكًا

يُجَرِّبُ الكَلِماتِ

قَبْلَ أَنْ يَثِقَ بِصَوتِها.

فالحَقِيقَةُ

حِين تُقالُ بِسُهولَةٍ

تَفْقِدُ شَيئًا مِنْ صِدْقِها.

هُنا

لا تَبْدَأُ المَعانِي مِنْ تَعريفاتِها،

بَلْ مِنْ تَصدُّعاتِها.

كُلُّ فِكرَةٍ تَمُرُّ مِنْ هذَا المَوْضِعِ

تَخْتَبِرُ وَزنَها،

فَإِمّا أَنْ تَمشي خَفِيفَةً

وَإِمّا أَنْ تَسقُطَ

مِنْ فَرْطِ ما تَحْمِلُ.

أَمشي بَيْنَ المَفاهيمِ

كَما يُمْشَى عَلَى حافَةٍ غَيْرِ مُكْتَمِلَةٍ،

خُطْوَةٌ لِلأمامِ

وأُخْرَى داخِلَ السُّؤالِ.

وأَعْرِفُ أَنَّ التَّفْكيرَ

لَيْسَ بَرِيئًا،

وَأَنَّ العَقْلَ

كُلّما ادَّعَى الحَيادَ

كانَ أَكْثَرَ تَوَرُّطًا.

فِي هذَا النَّصِّ

لا تُقَدَّمُ الإِجاباتُ

بِصوتٍ عالٍ،

بَلْ تُتْرَكَ الكَرَاسِيُّ فَارِغَةً

كَي يَجْلِسَ فيها الشَّكُّ.

وأَيُّ رَاحَةٍ

يَشعُرُ بِها القارِئُ

لَيْسَت وَعْدًا،

بَلْ فَخًّا مُؤَقَّتًا.

إِنْ كانَ لِلْحُرّيّةِ مَعْنًى

فَهُوَ لا يَسْتَقِرُّ،

وَإِنْ كانَ لَها شَكْلٌ

فَهُوَ يَتَبَدَّلُ

كُلّما حاوَلْنا الإِمْسَاكَ بِهِ.

هِيَ هذَا القَلَقُ المُتَزَنُّ

الَّذي يَجْعَلُنا

نُعيدُ النَّظَرَ

في أَكْثَرِ أَفكارِنا أَناقَةً.

هُنا

لا بَدَايةَ واضِحَةً،

وَلا نِهَايةً مُتَّفَقًا عَلَيْها.

هُنا يُمْتَحَنُ القارِئُ

قَبْلَ القَصيدَةِ:

هَلْ جاءَ يَبْحَثُ عَنْ يَقِينٍ،

أَمْ عَنْ سُؤالٍ

يَلِيقُ بِهِ؟

***

أَقُولُ:

في السّاحَةِ الَّتي لا سَقْفَ لها

كانَ صَوتٌ يُكثِرُ مِنَ الأَسئِلَةِ

حَتّى ضاقَ بِهِ الحُكْمُ

فَشَرِبَ الكَأْسَ واقِفًا

كَيْ لا يَجْلِسَ الوَهْمُ مَكانَهُ.

وأَقُولُ:

في كَهْفٍ يَتَنفَّسُ الظِّلالُ

كانَ الضَّوءُ يَتَعَلَّمُ المَشْيَ عَلَى جُدْرانٍ مائِلَةٍ،

وكانَتِ الأَشْكالُ تَعْتَقِدُ نَفْسَها أَصلًا،

حَتّى خَرَجَ واحِدٌ

وَلَمْ يَعُدْ كَما كانَ.

وأَقُولُ:

في مِيزانِ الأَشْياءِ

ثَمَّةَ مَن عَلَّمَ الكائِناتِ

أَنْ تَبْحَثَ عَنْ عِلَّتِها الأُولى

دُونَ أَنْ تَنْسَى

أَنَّ لِلدهشَةِ وَزنًا لا يُقاسُ.

وأَقُولُ:

حينَ قَرَّرَ العَقْلُ أَنْ يَبْلُغَ سِنَّ الرُّشْدِ

كَتَبَ وَصِيَّتَهُ بِيَدِهِ،

وقالَ:

لا وَصايَةَ عَلَيَّ

إلّا قانُونًا أَسْمَعُهُ مِنْ داخِلِي

كَخُطْوَةٍ لا تُرى أَثَرُها

لَكِنَّها تَعرِفُ أَيْنَ تَمضي.

وأَقُولُ:

مَرَّ عابِرٌ

يَحْمِلُ مِطرَقَةً لا تَكسِرُ الحَجَرَ

بَلْ تُرَبِّكُ الأَصنامَ فِي العُيونِ،

ضَحِكَ مِنَ القِيَمِ حِين ادَّعَتِ البَرَاءَةَ،

وَسَأَلَ:

مَنْ سَمّى الطَّاعَةَ فَضِيلَةً؟

وَمَنْ خافَ الرَّقْصَ فَوْقَ الهَاوِيَةِ؟

وأَقُولُ:

فِي الأَرُوقَةِ الَّتي تَكتُبُ أَسْماءَنا

كانَتِ السُّلْطَةُ تَمشي بِلا أقدامٍ،

تَتَخَفّى في الجُمْلَةِ،

وَفِي الدَّرْسِ،

وَفِي تَرتيبِ المَقاعِدِ.

لَكِنَّ هَمْسًا عَنِيدًا

كانَ يَقُولُ:

حَيْثُ تَشُدُّ القَبضَةُ

تُولَدُ مُقاوَمَةٌ

بِلا نَشيدٍ.

وأَقُولُ:

رَجُلٌ وَقَفَ أَمامَ الفَراغِ

فَاِكتَشَفَ أَنَّهُ حُرٌّ

حَدَّ الأَلَمِ.

لَمْ يَجِدْ عُذْرًا جاهِزًا

فاخْتَرَعَ مَسْؤولِيَّتَهُ،

وقالَ: أَنَا ما أَفْعَلُ

وَمَا لا أَسْتَطيعُ التَّهَرُّبَ مِنْهُ.

وأَقُولُ:

لَيْسَتِ الفَلْسفَةُ كِتابًا

بَلْ تَمرينٌ عَلَى الاِنْفِلَاتِ،

لَيْسَت مَذْهَبًا

بَلْ شَقٌّ صَغيرٌ

في جِدارِ الطَّاعَةِ.

نَمشي عَلى حافَةِ المَعْنى

كَمَنْ يَخْتَبِرُ الجِسرَ بِخُطْوَةٍ واحِدَةٍ،

نَرْفَعُ السُّؤالَ

لا لِيَصِيرَ جَوابًا،

بَلْ لِيَظلَّ حَيًّا.

***

والآنَ...

أَيُّهَا الوَاقِفُ بَيْنَ فِكرَتَينِ،

هَلِ الحُرّيَّةُ ما نَمْلِكُ

أَمْ ما يَفْلِتُ مِنْ أَيْدِينَا كُلّما ظَنَنَّاهُ اِكْتَمَلَ؟

هَلِ المَعْنَى بَيْتٌ نَدخُلهُ

أَمْ طَرِيقٌ يُواصِلُ المَشْيَ بَعْدَنا؟

رُبَّمَا...

كانَتِ الحَقِيقَةُ سُؤالًا

لَمْ يَتَّفِقْ أَصْحابُ الأَسئِلَةِ عَلَى نِهَايَتِهِ،

أَوْ نافِذَةً

كُلّما فَتَحْناها

دَخَلَ هَواءٌ

لا يُشْبِهُ ما توقَّعْنا.

نَدْبَةُ الضَّوْءِ في لَيْلِ المَاءِ

بين الماء والليل، حيث يتعثّر الضوء بذاكرته، تولد الحكايات التي لا أسماء لها، وتمشي الكائنات وهي محمولة على هشاشتها. هنا، لا يكون السقوط نهاية، بل طريقة أخرى لقول ما عجزت اللغة عن إنقاذه.

***

رَأَتْها الرِّيحُ

تَخْطو عَلى ظِلِّها،

كَأَنَّ الرَّمْلَ مِرْآةٌ بِها

تَتَمَزَّقُ الصُّوَرُ الأُولى لِلْبَدْءِ...

تَشُدُّ خُيُوطَ الغِيابِ

إِلى قَلْبِها المُثْقوبِ

بِمِسْمارِ الاِنْتِظارِ.

هِيَ لا اِسْمَ لَها،

لَكِنَّ المَوْجَ إِذا هَمَسَ بِاسْمٍ

تَشَظّى،

وَاِنْكَفَأَ في فَمِ الغُمُوضِ

كَالطَّعْناتِ.

تَجْثو الشِّباكُ

كَشَيْخٍ يَهْمِسُ لِلنِّسْيانِ،

كُلُّ عُقْدَةٍ فيها

بُكاءٌ مُؤَجَّلٌ،

وَكُلُّ ثَقْبٍ نَشيدُ فَقْرٍ

بِلَوْنِ الحِبْرِ.

تَقْتاتُ مِنْ صَمْتِ المَاءِ،

تُطْعِمُ جُوعَ النَّهاراتِ

ما تَلْتَقِطُهُ أَنامِلُها

مِنْ زَفْرَةِ البَحْرِ،

ثُمَّ تَمْضي

كَأَنَّها لا تَعْرِفُ المَعْنَى

وَلا تَسْأَلُهُ.

تَذُرُّ عَلى شِفاهِ الشَّيْبِ

شَيْئًا مِنَ البَلَلِ،

ثُمَّ تَمْضي،

تَتْبَعُ قِنْديلَ ضَوْءٍ
لا يَصِلُ أَبَدًا...

***

يا نَوارِسَ الشَّطِّ،
هَلْ رَأَيْتُنَّها؟
كانَتْ تَسيرُ بِثَوْبٍ
مِنَ الرَّمْلِ وَالمِلْحِ،
في عَيْنَيْها
نَدْبَةُ مَجاعَةٍ أُولى،
وَفي قَدَمَيْها
تُؤَرِّخُ خُطَى الغِيابِ.
صَرَخْتِ، أَيَّتُها الشِّباكُ،
لَكِنْ لَمْ يُجِبْكِ غَيْرُ
صَدَى الحِبالِ المُهْتَرِئَةِ،
وَالحُفَرِ الَّتي
نَسَجَ فيها الدُّودُ مَمالِكَ صَمْتٍ.

**

لا أَحَدٌ رَأَى السُّقوطَ،
وَلا أَحَدٌ اِلْتَقَطَ الوَهْمَ
حينَ تَهاوَتْ
عَلى رُكْبَتَيْها
كَحَرْفٍ أَضاعَ السِّياقَ.
الضَّوْءُ
كانَ يَتَهَجّى ما تَبَقّى
مِنْ ظِلِّها،
ثُمَّ أَطْفَأَهُ الشَّفَقُ.

***

مَرَّ بِها عابِرُ الرِّيحِ،
وَفي كَفِّهِ شَمْسٌ
وَفي الأُخْرَى سُؤالٌ...
قالَتْ لَهُ نَظْرَتُها:
«العَوْنُ مَوْتانِ،
واحِدٌ في اليَدِ،
وَآخَرُ في الكِبْرِياءِ».

فَانْحَنى

لِيُقَبِّلَ الرَّمْلَ

حَيْثُ غَفَتْ.

***

فِي اللَّيْلِ،

كانَتِ النَّوارِسُ

تَحْمِلُ شَيْئًا يُشْبِهُ

رِسالَةً

أَوْ جُثَّةً مِنَ الضَّوْءِ،

وَتَرْمي بِها إِلى البَحْرِ.

***

وَالمَوْجُ

كانَ يُحاوِلُ أَنْ يَنْسى...

لَكِنَّ الرَّمْلَ

ما زالَ يَحْتَفِظُ

بِأَثَرِ الجَسَدِ الخَفيفِ،

وَبِهَمْسِ الخُطْوَةِ الأَخِيرَةِ.

***

لا تُحَدِّقْ طَويلًا في آخِرِ المَدَى،
فَلَيْسَتْ كُلُّ الظِّلالِ تَنْتَهِي عِنْدَ الضَّوْءِ،
ثَمَّةَ نَبْضٌ
أَضاعَ طَريقَهُ في الزَّبَدِ،
وَهَمْسَةٌ
اِنْطَفَأَتْ في صَدَفَةٍ
أَغْلَقَها البَحْرُ
عَلى سِرٍّ لا يُقالُ.

حينَ تتذكّرُ الروحُ لغتَها الأولى

حينَ خرجَ النورُ من شقٍّ في جدارِ الصمتِ لم يرفعْ رايةً...
بل تركَ للعتمةِ أن ترى نفسها.

***

لم تكن الكلماتُ سيوفًا،
ولا الحروفُ خيولَ اقتحام،
كانت نَفَسًا قديمًا
خرج من رئةِ العالمِ المتعبة،
فارتجفَ الرخامُ
وتلعثمَتِ المرايا.
هناك...
حيثُ تُلمَّعُ الوجوهُ كلَّ صباح،
وحيثُ تُصاغُ الحقيقةُ
بحجمِ النشرات،
مرَّ صوتٌ وحيدٌ
خفيفٌ كدعاءٍ في مهبِّ الريح،

لكنه ثقيلٌ

كميزانِ العدالةِ حينَ يستيقظ.

***

جاء الصوتُ من امرأةٍ

تعلّمتْ الصمتَ طويلًا

بين جدرانٍ تعرفُ التراتيل

ولا تعرفُ الرجفة.

خرجتْ من الزمنِ

لا حاقدةً ولا منكسرة،

بل مثلَ غصنٍ

اكتشفَ فجأةً

أنَّ السماءَ أقربُ

من سقفِ القاعة.

قالت:

لم أُمسَّ بسوء،

لم تُكسَرْ روحي،

لم تُساوَمْ كرامتي،

بل رأيتُ بشرًا

يُصلحون داخلَهم

قبل أن يغسلوا أيديهم،

ويقيسونَ خطاهم

على نبضٍ خفيٍّ

لا يُرى...

لكنَّه يُنقذ.

رأيتُ وجوهًا

لا تعرفُ الضجيج،

وأكفًّا

تُمسكُ الفقرَ

دون أن تسقطَ العزّة،

ونساءً

يمشينَ في الضوء

كما تمشي الفكرةُ النقية

دون أن تخجل.

وكان الفجرُ

حينَ يتكلّم،

لا يطلبُ فهمًا،

بل يوقظُ في الصدرِ

ذاكرةً سماوية،

كأنَّ الروحَ

تتذكّرُ لغتَها الأولى.

ثم التفتَ الصوتُ

إلى العروشِ المصنوعةِ من صور،

لا ليُدينَ...

بل ليضعَ مرآةً

أمام الوجهِ المُتعب

من التمثيل.

قال:

كم مرّةٍ لبسنا الأسماءَ

وخلعنا المعاني؟

كم مرّةٍ رفعنا الشعارَ

وأسقطنا الإنسان؟

ليس كلٌّ من صرخَ آمن،
ولا كلٌّ من همسَ كان ضعيفًا،
فالحقيقةُ
تمشي أحيانًا
حافيةً...
لكنَّ الأرضَ
تتعلّمُ منها الثبات.

***

ثمّ يحدثُ أن
يعيشَ أحدهم
كما لو أنّه
الجواب...
دون أن يعرفَ السؤال.
أن تكونَ جسراً
لا لافتة،
ومعنىً
لا خطبة،

وأن تتركَ أثركَ

في قلبٍ واحد،

فالقلبُ إذا استيقظ

يتّسعُ المعنى.

هذا هو الطريق:

أن تمشي الحقيقةُ

كما لو أنّها وحدها،

ويكملُ الصمتُ

ما لم يُقَل.

مَدَارَاتُ القَلْبِ

لَمْ أَكُنْ أَبْحَثُ عَنْكِ،
كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَعْنًى
يَكْفِي لِيَحْمِلَ هذَا القَلْبَ
دُونَ أَنْ يَنْكَسِرَ.
كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الحُبَّ فِكْرَةٌ،
وَأَنَّ الفِكْرَةَ تُفْهَمُ،
حَتَّى جِئْتِ،
فَأَدْرَكْتُ أَنَّ بَعْضَ الحَقَائِقِ
لا تُفْهَمُ... بَلْ تُعَاشُ.
قَبْلَكِ
كَانَ الزَّمَنُ خَطًّا مُسْتَقِيمًا
يَمْضِي بِلَا دَهْشَةٍ،
وَكَانَتِ الأَشْيَاءُ تُؤَدِّي وَظَائِفَهَا
بِبُرُودٍ فَلْسَفِيٍّ مُقْنِعٍ.

بَعْدَكِ

صَارَ الوَقْتُ كَائِنًا هَشًّا

يَرْتَبِكُ حِينَ تَبْتَسِمِينَ،

وَتَصِيرُ اللَّحْظَةُ

أَوْسَعَ مِنْ تَارِيخٍ كَامِلٍ.

***

أُحِبُّكِ

لا بِوَصْفِكِ حُضُورًا،

بَلْ بِوَصْفِكِ اخْتِلَالًا جَمِيلًا

فِي نِظَامِي الدَّاخِلِيِّ،

كَأَنَّكِ الخَطَأُ الْوَحِيدُ

الَّذِي مَنَحَ حَيَاتِي دِقَّتَهَا.

حِينَ تَقْتَرِبِينَ

لا يَحْدُثُ شَيْءٌ خَارِجِيٌّ،

لا عَوَاصِفَ،

لا مُعْجِزَاتٍ مَرْئِيَّةٍ،

لَكِنَّ فِي الدَّاخِلِ

يَنْهَارُ جِدَارٌ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ بِوُجُودِهِ،

وَتَخْرُجُ رُوحِي

كَمَا لَوْ كَانَتْ مُحْتَجَزَةً مُنْذُ زَمَنٍ.

***

أُحِبُّكِ

كَأَنَّكِ المِرْآةُ

الَّتِي لا تَعْكِسُ وَجْهِي،

بَلْ تَعْكِسُ ضَعْفِي،

وَرَغْبَتِي،

وَتِلْكَ الْمِنْطِقَةُ الرَّخْوَةُ فِيَّ

الَّتِي أُخْفِيهَا حَتَّى عَنْ نَفْسِي.

فِي حُضُورِكِ

يَتَحَوَّلُ جَسَدِي إِلَى ذَاكِرَةٍ،

وَتَصِيرُ اللَّمْحَةُ لُغَةً،

وَالصَّمْتُ اعْتِرَافًا

لا يَحْتَاجُ إِلَى شُهُودٍ.
أَشْعُرُ أَنَّنِي أُكْتَبُ
لا أَتَكَلَّمُ،
وَأَنَّكِ تَقْرَئِينَنِي
دُونَ أَنْ تَفْتَحِي كِتَابًا.
أَرَاكِ
فِي الأَشْيَاءِ الَّتِي لا تُرَى:
فِي الفَجْوَةِ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ،
فِي التَّهْنِيدَةِ الَّتِي تَقْبِلُ القَرَارَ،
فِي ارْتِجَافَةِ اليَدِ
حِينَ تَتَرَدَّدُ بَيْنَ البَقَاءِ وَالرَّحِيلِ.
أَرَاكِ
كَأَنَّكِ المَعْنَى المُؤَجَّلُ
لِكُلِّ مَا لَمْ أَسْتَطِعْ قَوْلَهُ سَابِقًا.

***

أُحِبُّكِ
كَأَنَّكِ وَطَنٌ بِلَا حُدُودٍ،

لا يُطَالِبُنِي بِالاِنْتِمَاءِ

وَلَا يَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي،

يَكْفِي أَنْ أَدْخُلَهُ

حَتَّى أَعْرِفَ أَنَّنِي وَصَلْتُ.

وَحِينَ أَغِيبُ عَنْكِ

لا أَفْتَقِدُكِ بِوَصْفِكِ شَخْصًا،

بَلْ بِوَصْفِكِ حَالَتِي القُصْوَى،

أَفْتَقِدُ النُّسْخَةَ الَّتِي كُنْتُهَا

حِينَ أَكُونُ مَعَكِ،

تِلْكَ الَّتِي لا تَخَافُ،

وَلا تَتَجَمَّلُ،

وَلا تَحْتَاجُ إِلَى تَبْرِير وُجُودِهَا.

ثُمَّ،

فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَهْدَأُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ،

حِينَ يَنْسَحِبُ الضَّجِيجُ

وَيَصِيرُ العَالَمُ خَفِيفًا،

أَجِدُنِي أَرْفَعُ قَلْبِي

كَجَنَاحَيْنِ غَيْرِ مَرْئِيَّيْنِ،

وَأَحَلِّقُ...

لا هُرُوبًا مِنَ الأَرْضِ،

بَلْ اقْتِرَابًا مِنْكِ.

نَصْعُدُ مَعًا

إِلَى فَضَاءِ

لا يَقِيسُ الحُبَّ بِمَا يُقَالُ،

بَلْ بِمَا يُحْتَمَلُ،

فَضَاءٍ

لا نِهَايَةَ لَهُ،

لِأَنَّنَا فِيهِ

لا نَبْحَثُ عَنْ النَّجَاةِ،

بَلْ عَنْ الامْتِلَاءِ.

وَهُنَاكَ،

أَفْهَمُ أَخِيرًا

أَنَّ الحُبَّ

لَيْسَ أَنْ نَصِلَ،

بَلْ أَنْ نَطِيرَ

دُونَ خَوْفٍ مِنَ السُّقُوطِ،

مَا دُمْنَا

نَقَعُ

فِي بَعْضِنَا.

المحتويات

مقدمة	5
عَلَى حَافَّةِ الِاكْتِمَالِ	9
عَتَبَةُ الاحْتِمَالِ	11
حينَ حَمَلَ الجَمْرُ رَمادَهُ	20
أطياف الحلم	26
حين يعبر الظلّ نهر المعنى	33
صَمْتٌ يُرَبِّي الطَّاغِيَة	37
أجنحةُ الفَيْضِ	42
الظمأ والنور	52
أَنَاشِيدُ النَّزِيفِ السَّمَاوِي	56
وصيّة الميّت الذي لم يُدفَن	64
حينَ يُولَدُ الضّوءُ مِنَ الرَّماد	68
غُصنٌ يضيءُ في ريح الغياب	73
أُفُقٌ يُصَلِّي بِلُغَةِ الْمَطَر	83
أطلسٌ يرفضُ الخرائط	88
حقولٌ لا تزهرُ في المرآة	96
تَراتيلُ الفَجْرِ المُؤَجَّلِ	103

تَجَلٍّ مِن رَمادِ الذّات 107

حين يتصدّع الصرح وتتكلم الظلال 112

مَزاميرُ على تَعاريجِ المَنْفَى 119

ظِلالٌ تَمْشي في مَرايا الذّاكرة 124

مَائدةُ الغَيْمِ الأَخِيرَة 131

وشاح العويس على كتف الضوء 136

معمار الضوء 140

هُوَامِشُ الحُرّيّةِ عَلَى جِدارِ المَعْنى 147

نَدْبَةُ الضَّوْءِ في لَيْلِ المَاءِ 156

حينَ تتذكّرُ الروحُ لغتَها الأولى 162

مَدَارَاتُ القَلْبِ 168

حين يحمل الجمر رماده

ليس هذا الكتاب نصوصًا تُقدَّم لتُفهم من القراءة الأولى، ولا معنىً جاهزًا ينتظر أن يُلتقط، بل هو تجربةُ عبورٍ في منطقةٍ قلقة بين السؤال وأثره، بين ما يُقال وما يظلّ مؤجَّلًا في عمق اللغة.

في هذه الصفحات، لا أكتب ليُقبض على الفكرة، بل ليُحرّكها، ليتركها تنزلق وتتشظّى، فتُنتج توترها الخاص، لا يقينها. هنا، تتحوّل الكتابة إلى فعل إنصاتٍ بطيء لما يتخفّى خلف الكلمات، حيث الرمز ليس زينةً ولا غموضًا مفتعلًا، بل كائنٌ حيّ، يتنفس داخل النص، ويقود القارئ إلى علاقةٍ مفتوحة مع المعنى، لا إلى تفسيرٍ مغلق له.

تتجاور في هذا العمل ثنائياتٌ لا تبحث عن حسم: النار والرماد، الضوء والظل، الحضور والغياب. ليست صراعاتٍ، بل حالاتُ تحوّلٍ مستمر، حيث يصبح كلّ طرفٍ أثرًا للآخر، ويغدو المعنى نفسه حالةً من التشكّل الدائم.

أما اللغة، فتميل إلى الشعر دون أن تفارق تأملها، وتلامس الفلسفة دون أن تتحوّل إلى خطابٍ نظري. إنّها لغةٌ تُربك بقدر ما تُضيء، وتُراكم صورها ببطء، وتدع القارئ لا يكتفي بالمشاهدة، بل يسكن النص، ويشارك في إعادة بنائه.

"حين يحمل الجمر رماده" كتابٌ لا يَعِد بالطمأنينة، بل بالصدق؛ لا يمنح إجابات، بل يفتح أسئلة. وهو، في جوهره، دعوةٌ إلى قراءةٍ مختلفة: قراءةٍ تصبر، وتتأمّل، وتقبل أن يجرحها المعنى قليلًا... قبل أن يمنحها دفأه.

سمير اليوسف